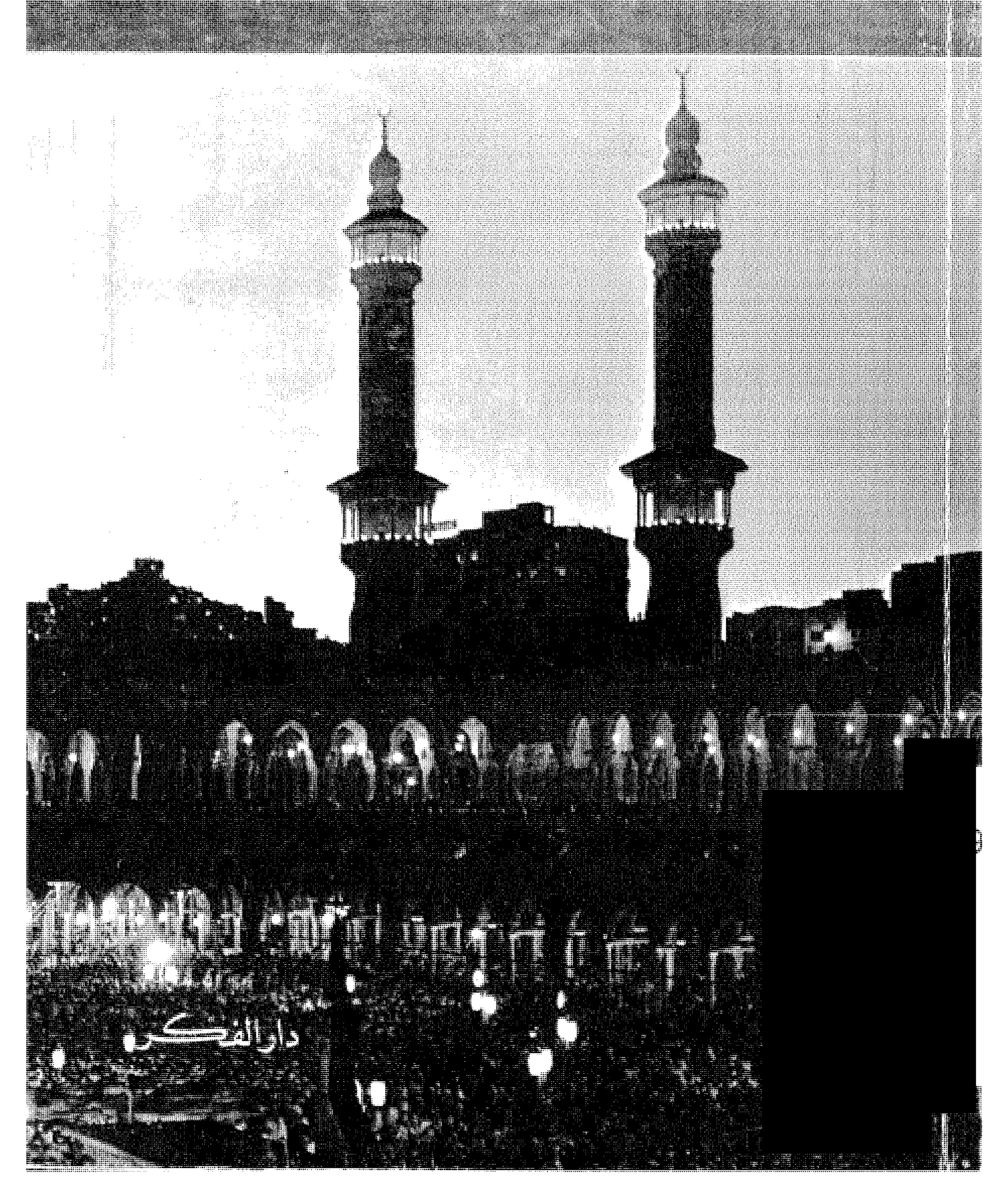
علي الطنطاوي

من نفحات الحرم



بسم الله الرحمن الرحيم

من نفحات الحرم

علي الطنطاوي



دار الفكر

١٤٠٠ هـ

١٩٨٠ م

طبع بطريقة الصف التصويري الألكتروني والأوفست
في دار الفكر بدمشق



دار الفكر بدمشق - شارع سعد الله الجابري - ص . ب ٩٦٢
هاتف ١١١٠٤١ - ١١١١٦٦ - برقيا فكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك، اللهم إني أسألك أن تنفع به، وأن تثيبني عليه، وصل اللهم على سيدنا محمد معلم الخير وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

الصلات الروحية بين سورية والمملكة العربية السعودية

نشرت سنة ١٩٥٦

كنت في مصر، من بضع سنين وكانت في الجامعة بعثة من الطلاب تستعد لتمضي الى الحج، فعلق بها طالب يعرفه إخوانه شيوعياً خبيثاً حربا على الاسلام وأهله، مجادلاً لدعاته، فأبوا عليه الصحبة، وألحَّ هو راغباً فيها، فخبرني بذلك أستاذ في الجامعة فقلت له :

- أنا أرى أن تأخذوه معكم، فلعل الله قد أذن بصلاحه فبعث هذه الرغبة في نفسه.

فاستبعد ذلك. فقلت :

- إن هذا الطالب كالآلاف من أمثاله ممن نشأ على الاسلام، وربي عليه في بيته، فرسخ الإيمان في قلبه لأن الكفر والإيمان ومبادئ الخير والشر، إنما يكون رسوخها في سن الطفولة والصبا، إنه مؤمن في قرارة نفسه ولكن ضعف الدعوة الى الحق، وقوة الدعوة الى الباطل هي التي صارت به الى هذا المصير، إنه طلاء إذا سطعت عليه شمس الحجاز أذابته فكأنه ما كان.

وأخذوا برأيي وصحبوه.

ولما رجعوا ، ولقيت هذا الأستاذ قال لي :

ـ لقد كان ما قدرت ، ولكنه كان شيئاً عجيباً ، دهش له كل من كان معنا ، حتى الطالب نفسه ؛ فإننا ما بلغنا حدود الحرم ونزعنا ثيابنا ، حتى تبدل نفساً بنفس ، كأنما نزع مع الثياب دنياه كلّها من قلبه ، وأفكارَ السوء من رأسه ، وترك الباطل الذي كان يحيا فيه ، وعاد الفتى المؤمن يجهر بالتلبية أكثر من جهرنا ، ويخشع لها أشد من خشوعنا ، فحسبنا ذلك تظاهراً منه لنا ، وتزلفاً إلينا ، حتى إذا بلغنا باب الحرم ، وبدت لنا الكعبة ، غلبت عليه حال يستحيل أن تكون تصنعاً وتمثيلاً ، وراح يبكي وينشج حتى لقد أبكانا .

ثم كان أكثَرنا صلاة وطوافاً واستغراقاً في العبادة .

ـ قلت : هذا أثر الحرم في نفس المسلم .

وهب أن هذا الشاب كان فاسقاً أو كان شيوعياً ، أفما صلى مرة واحدة في عمره .. أما رأى من يصلي ؟ فكيف يصلي ولا يتعلق بهذا البيت ؟

إن المصلين يتوجهون جميعاً ، من آفاق الأرض الأربعة ، خمس مرات كل يوم ، الى هذه البنية السوداء ، يقومون صفوفاً وراء صفوف ؛ يتصورونها على البعد من وراء الجبال والبحار ، وقلوبُهم تهفو إليها أكثر مما يهفو الى المحبوب قلبُ العاشق الهيمان ، وبينهم وبينها من البعد ألف حجاب ، فلا يزال الحاج منهم يجزع الأرض يدنو منها ، وكلما دنا وارتفعت له الحجب ، حجابا بعد حجاب زاد به الشوق خطوة بعد خطوة ، حتى يأذن الله بالوصول فاذا هو في حضرة القدس ، وإذا هو يلمس بيده جدرانها ويقبل حجرها ، ويتعلق بأستارها ، وإذا هو في لذة من لذائذ الروح ، لو اجتمعت أقلام أدباء البشر من كل لسان لما استطاعت وصفها .

فاذا مشى في الموكب الأزلي ، الموكب الذي بدأ يسير من عهد إبراهيم ، لم ينقطع أبداً ، موكب الطهر الذي يسير في الحر والقر ، وفي السلم والحرب ، وفي الليل والنهار على مدى الأيام وكر الليالي ؛ موكب الطائفين ، أحس كأن قد حل عنه قيد الزمان والمكان ، فرأى الزمان كله قد اجتمع هنا ، والمكان كله هنا ؛ الشام هنا ، ومصر

هنا . والعراق وفارس . وهنا افريقية والمغرب . والسند والهند وجاوة . والأرض المسلمة كلها هنا . والماضي هنا . والحاضر هنا . في هذا الموكب يمشي إبراهيم أبو الأنبياء . ومحمد سيد الرسل (صلى الله عليهم جميعاً) والصحابة والتابعون . والخلفاء والأئمة والفاتحون . والمسلمون كلهم من كان منهم ومن سيكون .

فما مسلم يطوف حول الكعبة إلا أحس أن وطنه الحقَّ ها هنا . لا البلد الذي ولد فيه وشهد مدارج طفولته وملاعب صباه .

فهل تراه يفكر في غيره ليستطيع أن يبحث عن (الصلات الروحية بينه وبين ذلك الوطن[1]) ؟

هذا وطني قبل وطني .

وإذا نسي الشاعر دار حياته . ومثابة ذكرياته . حين يقف على موطن حبه . فيخاطب آثاره ويستنطق دِمنَه وأحجاره . ويجعل ذلك مفتتح قصائده . وبداية مقاصده أفلا ينسى المسلم كل شيء إذا وقف على (موطن الروح) ورأى الكعبة . والمقام . وزمزم والحطيم . ؟ .

فماذا أكتب عن المملكة التي فيها (الحجاز) . منزل الوحي ومبعث الدين . وفيها (نجد) مثابة العروبة ومهوى القلب . ؟ وفيها الدين والدنيا . والاسلام والعروبة وأمجاد الماضي وآمال المستقبل ؟

وهل في أماني المسلم أكبر من أن يرى تلك المشاهد ويقف بتلك الأعتاب ؟ وهل يجد الشاكر دعوة يوليها المتفضل عليه والمحسن اليه . غير أن يدعو له بأن (يطعمه الله حجة) وإن توضأ قال له (من زمزم)[2] . وإن صلى قال له (حرماً)[3]

ويرحل المرء الى آفاق الأرض للتجارة والعلم والسياحة فلا يعلق به وصف رحلة . ويلزمه عمره كله . إلا الرحلة الى الحج فلا يجد مفخرة لنفسه بعدها أحب اليه من أن يدعى (الحاج) .

---

(١) نشر هذا الفصل في العدد الممتاز من (البلاد السعودية) وهي التي اقترحت الموضوع .

(٢) هذا هو الاصطلاح الشامي .

(٣) هذا هو الاصطلاح المصري .

وهل في معجم القومية كلمة ، أظهر وأكبر وأسير من كلمة (نجد) ؟ نجد دار العرب ومثابة الهوى ، وملهمة الشعراء ؟ هل في الأرض كلها على رحبها واد أو جبل أو بحيرة أو أيكة ، أو روضة من رياض الحسن ، أو جنة من جنان الفتون ، قال فيها الشعراء (شعراء كل أمة) مثل الذي قال شعراء العرب في نجد ؟ من شعراء الجاهلية الأول ، إلى هذه الأيام ، لا يضيق مكان القول في نجد ، ولا يفرغ الشعر من الكلام عن نجد :

« تمتع من شميم عرار نجد »

« ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد »

« فيا دمع أنجدني على ساكني نجد »

« شممت بنجد شيحة حاجرية »

« خذا من صبا نجد أمانا لقلبه »

ولو مررت أشير الى ما يحضرني الآن من النجديات لملأت صفحات .

فماذا أقول ، وفي أرض (المملكة) الحرم ، وفيها نجد ، وهما قبلتا الاسلام والعروبة ، وكل مسلم يتوجه بصلاته الى الكعبة ، وكل عربي غير مسلم يتلو أشعار العرب في نجد ، يقول له قلبه ، ها هنا وطن الروح المسلمة ، وها هنا وطن القلب العربي ؟

من هذه الصحراء التي تفحّ رمضاؤها ناراً ، ومن الصخر الصلد القائم حول حراء ، من هنا تفجر ينبوع الإسلام ، ومن هنا خرجت جنات الشام والأندلس وشعب بوّان ، وعلى هذه الجبال السود نزلت دعوة الحق والخير والجمال على الأرض ، ومن هذه الصحراء انبعث أدب العرب ، الصحراء التي لا تعرف النفاق ولا المكر . قف على قاسيون في ضباب الغداة ، أو وهج الظهيرة ، وانظر الى البلد تر سطوحاً تلمع باسمة لعين الشمس ، ولا يعلم ما تحتها إلاّ الله ، أما الصحراء فلست ترى فيها سطوحاً نقية تخفي تحتها رجساً ، ولا ترى عوجاً فيها ولا أمتاً ، ولا يختلف ظاهرها عن باطنها .

والصحراء موطن أسود ، لا حظيرة أغنام ، فلا يعيش فيها الا الآساد ، ومن لهم همم الآساد ، وصبر الجمال .

والصحراء دار العلماء والأقوياء ، لا يعيش فيها جاهل ، الجاهل بالنجوم والجهات والمسالك يموت فيها ، ويموت الضعيف الذي لا يقوى على مكابدة الأهوال .

لذلك انبثق الاسلام من هذه الصحراء لا في جنات الشام ، ولا تحت قباب القسطنطينية ، ولا بجنب إيوان المدائن ، ولا في أوروبا التي كانت يومئذ مسرح وحوش على صورة بني آدم .

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليجيء كل مسلم أسد

فلن نضل ولن نذل ، ما دامت هذه الصحراء لنا . كلما أصابنا عفن المدن ورطوبة الحضارة (نشرنا) أنفسنا فيها ، في عرفات ، فنعود أطهاراً أصحاء .

أتسألني بعدُ عن (العلاقات الروحية بين الشام وبين المملكة العربية السعودية) ؟

أي علاقات يا أخي ؟ إن العلاقات إنما تكون بين اثنين وما هنا الا واحد ، هو الوطن الاسلامي .

إن الوطن الاسلامي ليس كما يفهم الناس ، إن وطن المسلم ليس بلده الذي ولد فيه ، وعاش في رحابه ، والذي تظلله رايته ، كلا ، وما في الاسلام إلا راية واحدة يستظل بها كل مسلم هي راية القرآن ، ووطن واحد هو كل أرض يعمل فيها بأحكام الإسلام ، وتقام فيها حدود الله ، وينادى فيها بـ (لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله) .

والاسلام يحرم على المسلم أن يقيم ببلد لا يقام فيه حكم الله ، ويوجب عليه الهجرة منه ولو كان فيه أهله وماله وذكريات أمسه وآمال غده . ولذلك شرع الله الهجرة الأولى وبقيت أحكامها إلى يوم القيامة (إنَّ الذين تَوفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِي أنفسِهِمْ ، قالوا ، فيمَ كُنْتُمْ ؟ قالوا ، كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ في الأَرْضِ . قالوا ، أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله واسِعَةً فَتُهَاجِروا فِيها !) ، ثم لا يكون الجزاء الآ النار .

فليست الشام وحدها وطني ، موطني الأول البلد الذي بزغت منه أنوار الإسلام ، والذي تقام فيه حدود الله ، والذي يُحكم فيه بما أنزل الله .

ولو خيرتُ (لا سمح الله ولا قدر) بين أن تصيب بلدي جائحة أو أن تصيب المدينة ، لافتديت المدينة بالشام ومن فيها ، وبين أن ينزل ببيتي البلاء أو أن ينزل بالكعبة لرضيت أن يكون بيتي وألف ألف بيت مثله الفداء لبيت الله .

ولست في ذا وحدي ، كل مسلم في الأرض فيه مثلي .

لذلك تراني أفرح كلما سمعت عن الحجاز خبر خير ، وكلما رأيت في أرض المملكة تقدماً وعمراناً .

كان عهدي بجدة مثلاً سنة ١٩٣٥ ، أنها قرية يطيف بها سور له أبواب ، وما فيها إلا أزقة وحارات ، لا تكاد تتسع لتسير فيها السيارات ، فلما جئتها حاجاً من سنتين ، بلغت بنا الطيارة جدة وأنا نائم ، فصحوت ونظرت تحتي ، فما ظننت والله إلا أننا نازلون في الاسكندرية فلما قالوا : هذه جدة ـ شدهت ! !

وغبت عنها سنتين وجئتها من شهرين فوجدتني لا أكاد أعرفها .

والمدينة ، مدينة الرسول ، التي تشرفَتْ به مرتين : مرة بحياته ﷺ فيها ، ومرة بمثوى جسده في ثراها ، قد وصلت إليها يد الإصلاح فمستها فأخذت تنشق الهواء ، بعد ما لبثت أمداً وهي كالمخنوقة لا تجد متنفساً ، ومشى في سمائها أول خيط من النور ، بعد ما طال عهدها بالليل ، وستمشي صعداً إن شاء الله ، في طريق العلاء حتى تعود مرة أخرى عاصمة الدنيا ، وقصبة الأرض المسلمة ، كما كانت يوماً من الأيام ، يوم كانت جيوش الاسلام تحارب بالحق والعدل دول الأرض كلها معاً ، تحارب الروم في الشام وفي مصر ، والفرس في العراق ، وكلما استنجد قائد بعمر ، هز عمر هذه القرية الصغيرة ، فأمدته بالجند وبالقواد ، لم ينضب لها معين ، ولم يجف لها ينبوع ، وكيف وهي مدينة محمد ؟ !

وفي الرياض لقيت عجباً أعجب من العجب : تمشي المدنُ الى العمران مشياً ، أو تسعى (إن نشطت) سعياً ، وهذه تطير طيراناً ، لقد رفعت القرية القديمة يد عبقرية

قادرة ووضعت مكانها بلداً جديداً ، ولم يبقَ مما أعرف إلا قطعة من السوق القديم الذي لا يعدو عرضه المترين ، وفيه دكاكين صغار لاصقة بالأرض ، ولكني رأيت في هذا السوق الضيق ، في هذه الدكاكين الصغار شيئاً لم أر مثله ولا قريباً منه في المدن الكبار .

وقفت فيه على تاجر شيخ نجدي ، فسألته عن بضاعة معروضة ، كم ثمنها ؟ قال : كذا ، ولكن عند جاري هناك أجود منها وأرخص ! أي والله هكذا كان ، ولولا أنه كان معي لما صدقته .

ولو كان لي رأي لاقترحت الإبقاء على هذه القطعة من السوق ، ليعرف العالم كيف كانت الرياض ، وكيف صارت ؟ وليعلموا كيف تكون أخلاق العرب التي هذبها الاسلام .

فيا أيها الشيخ النجدي الذي لا أعرف اسمه ، لك تحياتي على البعد وإكباري .

أما كبرى العجائب فقد تمت في الحرم ، أنا أعرف حرم المدينة وأعرف تاريخ الزيادات فيه من لدن عمر وعثمان إلى الوليد وقايتباي وعبد المجيد ، فلما سمعت خبر الاصلاح الأخير ، حسبت أنها زيادة كتلك الزيادات وتوقعت أن أرى فيه توسيعاً يجيء من الأصل كالرقعة في الثوب ، وكنت مهما بالغت في حسن الظن أقدرها رقعة من حرير ، فلما جئت ورأيت وقفت شاخصاً لا أستطيع أن أنطق .

وتعمدت أن أدقق النظر ، لانتقد شيئاً ، فأقول ياليت أنهم فعلوا هذا وتركوا ذاك ، فما استطعت أن أقول لما فعلوه ليتهم تركوه ، ولا لما تركوه ليتهم فعلوه .

عمل عظيم ، عظيم ، عظـيم .

لقد صنع السعوديون للحرم ، في هذه السنين القلائل ، أكثر مما صنعه ملوك المسلمين جميعاً في ألف وثلاثمئة سنة .

أما حرم مكة ، فان البداية فيه تبشر بنهاية يصغر معها ما كان في المدينة .

لقد نسي التاريخ أعمال زبيدة كلها ، ولكنه حفظ صنيعها في ماء مكة ، فلا

تزال تذكر كلما ذكرت عين زبيدة . وعفى الزمان على ما صنع الوليد من قبل ، ولكنه بقي مذكوراً بتوسيع الحرم وبناء الأموي وسيبقى اسم السعوديين ما بقي على ظهر الأرض الحرَمان . وسيذكرهم كل من صلى في الروضة أو طاف أو قام في المقام ، وسيدعو لكل من شارك في هذا البناء بالثواب من الله .

وهذا الذي يبقى إذا ذهبت الحياة الدنيا .

وإذا كان خلفاء بني عثمان يحبون أن يلقبوا بأنهم خدام الحرمين الشريفين ، فان أحق الناس بلقب (خادم الحرمين الشريفين) من ترك في الحرمين هذه المآثر .

وبعد فالمعذرة يا أخي ، فلن أكتب في موضوع الصلات الروحية بين القطرين . إني أستطيع أن أكتب عن الصلات بين الشام والعراق أو مصر أو باكستان أو اندونيسيا ، وإن كنت أحبها كلها وأراني فيها كأني في بلدي ، أما عن الصلات بين الشام والمملكة العربية السعودية ، فذلك شيء آخر ، إن وطني الأول ها هنا ، أنا هنا أعيش حقاً وأنشق نسيم الحياة . هنا حين أقف على دار الأرقم ، فأسمع همس الفئة القليلة التي أخلصت لله واستجابت لدعوة الحق ، دون أهل الأرض جميعاً ، ثم أراها وقد بلغت الأربعين فخرجت في المظاهرة التي مشت أولا أربعين خطوة الى المطاف ، ثم مشت الى بدر والقادسية واليرموك ، وعين جالوت ، حتى أزاحت عن الأرض الدول التي جثمت على صدرها بالظلم والكبر ، وستمشي حتى تزيح كل دولة ظالمة طاغية ، أو تقومها حتى تعود الى الحق .

وما زرت (قبا) إلا دار بي الزمان وعاد أدراجه على طريق القرون ، حتى أرى البشائر بالهجرة وأسمع الولائد ينشدن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع [1]

وأرى موكب محمد ، لا تمشي وراءه الجند ، ولا ترفرف عليه الأعلام ، ولا تقرع له الطبول ، ولا يحف به القواد ، ولا يلمع على رأسه التاج ، ولكن يضيء على جبينه

(١) هذا هو المشهور ، وروي أن ذلك كان عند رجوعه ﷺ من غزوة تبوك .

نور القرآن ، وتحف به ملائكة الرحمن ، وتصفق له قلوب الناس ، وتنزل عليه من ربه الرحمات ، وتمشي وراءه القرون ، تهتدي هي وأهلها بهديه ، وتقبس من نوره .

لقد طلع البدر من (ثنيات الوداع) لا عليكن وحدكن يا ولائد المدينة ، بل على الدنيا كلها فبدد عنها غياهب الجهل وأزاح عنها ظلام الظلم ، وأسبغ عليها ثوب الأمن والعدل والخير .

وما سعيت بين الصفا والمروة ، وما صعدت جبل الرحمة ، وما قمت في الروضة ، أو وقفت على البقيع ، أو مررت ببدر ورأيت العدوة الدنيا والعدوة القصوى إلا شعرت كأني أعود الى تاريخ السمو الانساني ، تاريخ السيرة النبوية .

هذه هي المنازل التي نزل بذكرها جبريل وقدسها الكتاب ، حتى لنصلي بالكلام عنها[1] ، وما نقدس الأمكنة أو نعبدها ، ما نعبد إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الحق وله الأمر ، وهو الذي ينفع ويضر ، ولكنا نحبها ونَحِنُّ اليها ، لأنها هي الأرض التي اختصها الله برحمته ، رحمته التي أفاضها على الدنيا .

لقد كانت مكة قرية صغيرة ، متوارية بين الأخشبين ولم تدر بها رومة ، ولم تحفل بها القسطنطينية ، فلما دوّى فيها صوت محمد ﷺ ، ينادي ، لا إله إلا الله ، ولا ربَّ سواه ، لا كسرى ولا قيصر ، ولا اللات ولا العزى ، وأنها خابت وخسرت الاصنام كلها ، أصنام الحجارة وأصنام القبور ، وأصنام اللحم والدم ، وأن الفضل بالتقوى والعاقبة للمتقين ، وقعت معجزة المعجزات ، كبرت هذه القرية حتى أكلت مدن الباطل ، ثم كبرت حتى ولدت مدن الخير والحق ، ثم كبرت حتى صارت أم الأرض كلها .

هنا وضعت أسس دمشق الأموية ، والبصرة والكوفة وبغداد والقاهرة والقيروان ومراكش ، من هنا خرج أبو بكر وعمر وخالد وطارق ، وأبو حنيفة والشافعي ، والبخاري ومسلم ، والغزالي وابن تيمية ، وابن رشد والبيروني والجاحظ وابن قتيبة وجرير وأبو تمام وشوقي ، وكل إمام عادل حقق في الأرض أحلام المصلحين ، وكل

---

(١) أي نقرأ الآيات التي تذكرها في صلاتنا .

قائد شق بسيفه الطريق للمدنية العادلة خلال أشواك الظلم وكل مؤلف أقام صرح الهداية لكل طالب علم .

من هنا خرجت الحضارة الخيرة التي لا تزال الانسانية تنعم بخيراتها .

ونحن في خير ما دامت أجسادنا وقلوبنا متوجهة الى هنا ، الخير الذي انبثقت أنواره من هنا .

هنا مهوى القلب ، هنا موطن الحب ، هنا مستراح الأرواح ، هنا موطني الأول .

من هنا بدأ فجر الاسلام الأول ، فلما انقضى النهار وطال على المسلمين الليل وامتد المنام بدأ من هنا فجر اليوم الثاني .

لقد كان أول من أفاق منا ، وأحس بتباشير هذا الفجر رجل من هنا ، من نجد ، فأذن بنا بكلمة التوحيد (الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله) ودعانا للقيام فنهضنا نستقبل النهار الجديد ، نعمل فيه مثلما عمل الجدود نرفع للدنيا راية القرآن ، ونضرب الظالمين بسيف محمد ، ونحمل إلى أمم الأرض الحق والخير والسلام .

* * *

على غار حراء

نشرت سنة ١٩٥٦

لقد طوفت في الآفاق، وضربت في البر والبحر، ورأيت من البلدان قديمها وحديثها، ووقفت على مواطن القدس، وآثار المجد، ومجالي الجمال في الأرض، فما رأيت مكاناً كان أبلغ في قلبي أثراً، وكان أكثر على البشرية فضلاً، وأخلد في التاريخ عظماً، وأكبر على الحضارة يداً، من هذا الغار المقفر، القائم على قمة جبل أجرد، في قفر موحش منقطع، هذا المرقب الذي أطلّ منه يوماً على العالم، سيد العالم: محمد!

ولقد تشرفنا بزيارته في رحلتنا الأخيرة الى الحجاز قبل شهرين، وكان معنا سيارة لها سائق بدوي باقعة من البواقع، له لمّة سوداء، قد ضفرها ضفائر، اذا انزاح العقال عنها، ورأيته بها، بعينيه اللتين تَقِدان كعيني فَهْد، حسبت أن قد رأيت جنياً، فقلنا له:

ـ قد زرنا الحرم وعرفات ومنى، فهل تعرف الطريق الى غار حراء فتأخذنا اليه؟

ـ فقال: جيل (أي قوي على لغة إخواننا المصريين)، أهوهْ (وأشار الى الجبل).

ويسمى اليوم جبل النور، وهو جبل أسود عال، يبدو بين الجبال، كأنه من عُلُوّه المنارة بين البيوت.

ـ قلنا: فخذنا اليه.

ـ قال: هيا.

ومشى بنا في طريق عرفات ، فلما خرجنا من مكة ، وجاوزنا آخر بيوتها ، عطف بنا ذات اليسار ، فمشى بنا في فلاة لا جادة فيها ، حتى أبعد بنا ، وأطال السير ، والجبل في مكانه ، نراه تارة وتخفيه عنا الجبال القريبة تارات ، ما دنونا منه ولا دنا منا ، وما كان دولاب السيارة ، يدور بنا دورة ، الا صعدت نشزاً ، أو هبطت حفرة ، أو وطئت حجراً ، فلا تزال تهتز بنا حتى مخضتنا مَخْض الحليب[1] ، وكانت ساعة الزوال ، والشمس في قبة السماء ، وكأن وهجها لفح التنور المشتعل لمن ينظر فيه ، والصحراء من حولنا تتضرم فَيْحاً كأن حجارتها جمرات ، فذكرت بها رحلتنا الأولى الى الحجاز من إحدى وعشرين سنة ، يوم خرجنا من دمشق ، على غير هدى ، نفتح طريقاً للسيارات ، في أرض ما وطئتها سيارات قبلنا منذ برأها الله[2] ، فلقينا فيها الألاقي ، وامتدت بنا شهرين اثنين ...

وغابت مكة وبيوتها ، وتوارى عنا واديها ، واختفت كل أثارة للحياة والعمران ، وصرنا وحدنا في هذه الفلاة الموحشة ، في هذه السيارة التي أضحت من حرّها كالفرن ، تنفث لهباً ، وهذا السائق المنكر الذي يمشي بنا على غير هدى ، يدور دوران السانية ، وقديماً قالت في أمثالها العرب « سير السواني سفر لا ينقطع » ، فقلنا له ،

- يا عبد الرحمن ، يظهر أنك لا تعرف الطريق !

- قال وَلَوْ ! شيف (أي كيف) ما أعرف !!

فسكتنا ، وما زال يدور ، حتى أبصر وادياً ، ما رأينا في كل ما مررنا به أوحش منه ، فولجه ، ووقف وأشار الى جبل قائم كالجدار المنحوت ، وقال ، من هنا !

- قلنا ، ويحك ، ومن أين نصعد ؟ وإن نحن صعدنا فماذا نفيد من الصعود ، وما هذا جبل النور ، الذي دللتنا عليه .

وعلمنا أنه جاهل بالطريق ، وكنا قد مررنا بقهوة من تلك القهوات البلدية ،

---

(١) من العامي الفصيح .

(٢) اللهم إلا سيارة واحدة للشيخ عبد العزيز بن زيد مفتش الحدود يومئذ وسفير المملكة العربية السعودية اليوم في دمشق - وبعض أخبار تلك الرحلة قد مر في هذا الكتاب .

التي تسمى في الحجاز (شايخانات) . وليس فيها الا مقاعد طويلة من القش ، تصلح للقعود وللمنام ، وليس لها عيب إلا أنها تكسر ظهر القاعد ، وتطيّر النوم من عيون النعسان[1] فقلنا :

ـ اذهب بالسيارة ، فادع صاحب القهوة ليدلنا ، ونحن نعطيه . . .

وجاء صاحب القهوة ، وهو بدوي مشدود شد الوتر ، لم تبق منه الأيام إلا جلداً أسود ، على عظم دقيق ، وكان قد صحبنا من مكة شاب حضري أبيض سمين ، يكاد يتفزّر شحماً ولحماً ، فلما رآه ، سخر منه ، وقال : وما يصنع هذا ، وهو ميت يمشي ؟ ! فما سرنا إلا قليلاً حتى تبين من الميت الذي يمشي ، أهذا الحضري السمين ، أم ابن الصحراء !

لقد كشفت الحقائق فاذا البدوي على نحافته وسواده ، كأنه عمود من حديد ، واذا الآخر على بياضه وسمنه ، كأنه سارية من الطين .

* * *

وكان الجبل بدعاً في الجبال ، جبلين ركّب أحدهما فوق الآخر ، أما الأسفل فجبل عادي ، وأما الأعلى فقطعة واحدة من الصخر الاسود الأملس كأنه بيضة كسرت رأسها ، ثم أقمتها عليه ، أو كأنه قبة مصنوعة بالإزميل[2] ذاهبة في السماء .

وكان هنا درج منحوتة[3] قد أبلاها القدم ، وأحنى حافاتها فلم تعد تتماسك عليها رجل الصاعد ، ونال منا الحر والعطش ، ولكنا صبرنا ، حتى بلغنا أوائل الصخرة ، فقلت :

ـ من هنا وبَسّ[4] .

ولم أخش الصعود ، بل خشيت النزول من بعد ، ولكن أصرَّ الاخوان فاستحييت أن

(١) نعسان من العامي الفصيح ، والناعس أفصح منها .

(٢) الازميل : المطرقة ، من العامي الفصيح .

(٣) درج مؤنثة لأنها جمع درجة مثل سلك ج سلكة وحال ج حالة .

(٤) بس معربة من القديم .

أكون أنا الرياضي، ابن الجبال، الذي نشأ في قاسيون، وأمضى صباه قافزاً على صخوره، موغلاً في شعابه، أقلّهم صبراً، فصعدت مكرهاً وكدت على رغم الدرج المنحوتة، أهوي مرّات، وكنت كلما نظرت تحتي ورأيت السيارة قد أصبحت أصغر في البصر من النملة، أحس أن رأسي[1] يدور، وكان البدوي يطأ الصخر وطء متعسف جبار، ويدحرج الحجارة بقدميه فصرخت به أن ترفق ويحك فإن هذي الصخور قد سمعت يوماً أول كلمة من حديث السماء في أذن الأرض، إنها شهدت أول آية خطت في كتاب الله، الذي هبط به سيد الملائكة على سيد البشر، ولو استطعت لمشيت على الرأس تقديساً وإجلالاً، فما أجرؤ أن أطأ بقدمي الجبل الذي ضم ذراعيه يوماً على محمد، وسمعت أذناه جبريل يقول له:

« اقرأ باسم ربك الذي خلق »

لقد انقطع بريد السماء عن الأرض مذ مات محمد، ولم يبق على ظهرها من شهود الوحي، إلا هذه الشعاف، وهذه الأصلاد، وإذا كان شعراء العرب يستطيبون الوقوف على آثار الأحبة ويستنطقون الدِّمَن والآثار، فقف وَيْكَ سائل هذه الأصلاد ما خبر الوحي؟

* * *

وكنا قد بلغنا القمة بعدما تقطعت أنفاسنا، ونشفت[2] حلوقنا، وبلغت أرواحنا التراقي، ونظرنا فاذا نحن كالمعلق في السحاب، وإذا الدنيا كلها أسفل منا، وإذا نحن لا كمن هو على ظهر جبل، ففي الجبال ما على ظهره فلوات فساح، بل كمن هو على ظهر عمارة سامقة، واذا ذروة الجبل لا تزيد مساحتها على مساحة غرفة من الغرف، أما الغار، فكان تحتنا في مكان لا يمكن أن يصل اليه، الا من يتدلى ثم يمر من شق في الجبل، حتى يبلغ فرجة في الصخر، كأنها وَكْرُ نَسْر، ما أحسب طولها يعدو المترين ولا يبلغ عرضها المتر.

---

(١) أكثر كتاب مصر إلا الأبيناء منهم يؤنثون كلمة الرأس مع أن العرب لا تؤنث الرأس ولا ترئس الانثى!

(٢) من العامي الفصيح.

وكان هذا هو غار حراء .

فقلت في نفسي : إننا لم نصل الى القمة ، ونحن جماعة ونحن نصعد على درج منحوتة ، حتى أشرفنا على الموت ، فكيف كان الرسول ﷺ يصعد وحده ، وكيف عرف مكان هذا الغار ، إلا أن يكون قد ارتاد هذه الجبال كلها وبلغ أعاليها ، وكيف كان يقيم وحده الليالي ذوات العدد ، وما حوله إلا هذه الجبال السود ، وهذه الوحشة الصامتة المرعبة ؟

ونظرت فإذا كل شيء من حولي صامت صمت الرهبة ، ساكن سكون الجلال ، لا نأمة ولا حس ولا حركة ، ولا شيء يشغل الانسان عن التفكير في السماء ، والكعبة تبدو من بعيد وسط هذا الاطار الصخري فمن كان في الغار كان كأنه في الدنيا وما هو في الدنيا ، يرى الكعبة وحدها فيتصل منها بكل ماهو سماوي طاهر ، ويخفى عليه كل شيء غيرها ، فينفصل عن كل ماهو أرضي ملوّث .

وقالت لي النفس : بماذا كان يفكر محمد وهو يقضي الأيام والليالي وحيداً في هذا الغار ؟

فقلت : أنا أعرف ويحك بمادا كان يفكر محمد ؟

أنا أسمو بعقلي الأرضي المثقل بالشهوات والمطامع الى جَوّ محمد ؟ أتطمع الزواحف أن تزاحم العقبان في أكباد السماوات ؟

وقعدت خاشعاً مفكراً .

وانطلق ذهني يرتاد جنبات الماضي الحبيب ، يتصور محمدا ﷺ وهو في هذا المرقب العالي ، وحيداً مفرداً ، حين جاءه البريد من فوق السبع الطباق برسالة من الله ، وقال له : اقرأ .

ان أول كلمة في دستور الاسلام كانت (اقرأ) ، لم تكن (قاتل) ولم تكن (اغتن) ولم تكن (سيطر) ، لأن الاسلام ليس دين قتال ، ولا دين مال ، ولا دين سيطرة وسلطان ، ولكن الإسلام دين العلم والفكر والهدى .

(اقرأ) . لا باسم ملك ولا أمير ، ولا باسم حزب ولا باسم شعب بل (باسم ربك) ربك (الذي خلق) . لم يقل الذي خلق قريشاً . ولا الذي خلق العرب ، بل الذي خلق الخلق جميعاً ، لأن دعوة محمد الى الخلق جميعاً ، الى الإنس والجن .

دعوة فيها أعظم تكريم ناله الإنسان ، وهل أعظم من أن يبعث اليه الله برسالة ، على يد واحد من بني الإنسان ؟

إن الذي تأتيه رسالة الملك يعتزُّ بها ويجعلها مفخرة العمر ، فكيف وهذه رسالة الله ، ملك الملوك .

إنها غاية الإعزاز ، ولكن لا تغتر بها أيها الانسان ، ولا تتكبر ، واذكر أن أصلك علقة (خلق الانسان من علق) ، والكبر صفة الله ، فيا عجباً لمن أصله من العلق ويتطاول حتى يدعي صفات الألوهية !

(اقرأ وربك الأكرم) ومن أعظم مظاهر كرمه أنه (الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) .

هذه فاتحة الرسالة الخالدة ، التي بعث الله بها محمداً ، ما مجّد فيها الحرب ولا ذكر السيف ، ولكن كرم العلم وذكر القلم فأين يُذهب بهؤلاء المكابرين ، الذين يقولون إن شرعة محمد شرعة السيف وحده ؟

السيف ؟ لا بد من السيف ! ولكن لنزيح به من يعترض طريقنا الى السلام ، لندافع به عن حريتنا في العمل على كشف الظلمات عن العقول ، ورفع الظلم عن الناس ، وعن حرية المظلومين الذين اشتمل عليهم الظلام ، في السعي الى الاستنارة بهذا الضياء الذي بدا للدنيا كلها من غار حراء .

ما حاربْنا إلا من حاربَنا ، ولا دفعنا إلا من اعتدى علينا ، وكنا نريد للناس جميعاً أن ينالهم الخير الذي أفيض علينا ، كنا نقول لهم ، تعالوا شاركونا فيه تكونوا منا ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا .

لم يكن في فتوحنا غالب ومغلوب ، ولا سيد ولا مسود ، ولا أشراف وعامة ،

ولا عرب وعجم بل كان الناس عندنا قسمين ، (الذين آمنوا) و (الذين كفروا) . فالذين آمنوا كلهم إخوة متساوون ، لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى ، والذين كفروا ، من أهل الكتاب ، يكونون في ذمتنا وعهدنا إن ساكنونا في أرضنا ، ولم ينقضوا عهدنا ، ونؤمنهم إن استأمنونا ، ونفي لهم إن عاهدونا ، ولا نخشى حربهم إن هم اختاروا الحرب وحاربونا .

لذلك ترون كل فاتح غريب ، لا بد أن يأتي عليه يوم يطرد فيه حتى يعود من حيث أتى ، أو يفنى من قلته في الأمة التي غلبها وفتح ديارها إلا المسلمين ، إنهم ما دخلوا بلداً إلا أذابوا أهله فيهم ، وجعلوه لهم إلى يوم القيامة ، لا يحمون فتحهم بالسيف والسنان ، بل بالعقيدة والإيمان ، حتى يكون أهل البلد هم حراس هذا الفتح ، لا يرضون به بديلاً ، وهاكم مصر والشام وفارس والمغرب هل فيها من يرضى أن يعود بلده الى ما كان عليه قبل الفتح .

ذلك لأن الفاتحين يفتحون البلاد بالسيف يحاربون به أهلها ، ونحن نفتح قلوب أهل البلاد بالعقيدة ، وللعقيدة ، حتى يصير أصحابها أغير منا على هذه العقيدة .

هذه جاوة دخلها الاسلام يوم دخلها الاستعمار الأوروبي وكان الاسلام يمشي وحده ، يحمله النفر من التجار ، والاستعمار تمشي معه أبطال الرجال بعُدد القتال تحملهم الأساطيل التي تميس وسط اللجة كأنها الجبال ، فماذا كانت العاقبة ؟

مضى الاستعمار عنها فلا يعود إليها أبداً ، واستقر الاسلام فيها الى يوم القيامة .

❊ ❊ ❊

وارتاع محمد ، لما جاءه الوحي ، وكان محمد ﷺ بشراً مثلنا ، ولم يكن يدري ما الكتاب وما النبوة[1] ، وراح إلى أهله ، إلى أعظم النساء خديجة ، يرعد يقول : دثروني ، زملوني .

---

(١) والذي في المولد من أن جده علم أنه نبي ، وأمه علمت ، بل إن الوحوش علمت به وتباشرت ، كله لا أصل له .

فعاد النداء العلوي ، يدوّي في أذنيه أن (يا أيها المدثر) (قم) فليست حياتك للمنام ، إن على عاتقك حملًا ثقيلًا ، إن أمامك عملًا كبيراً ، إن العالم على خطر ، فقم (فأنذر) العالم ليتجنب الخطر ، قف وحدك في وجه الدنيا كلها ، وحطم أوثانها ، أوثان الحجر وأوثان اللحم والدم ، وامح الظلم وانشر العلم ، وأقم في الأرض صرح الحضارة الخيرة العادلة .

إننا لطول ما قرأنا سيرة الرسول ﷺ لم نعد نتنبه إلى عظمتها ، إن الألفة تذهب الشعور ، والمقيم في البلد الجميل لا يرى من جماله ، ما يراه القادم عليه من الغرباء .

لذلك أضرب لكم مثلًا يوضح لكم ما كلف به محمد .

تصوروا رجلًا أمياً في قرية من قرى الصحراء الكبرى ، الجاثمة وراء الرمال ، كلف أن يبدل عادات قومه ، وأن يغيّر عقائدهم ، وأن يحملهم على دستور جديد ، وأن يأخذهم بعد ذلك ، ليبلغوه الدولتين اللتين اقتسمتا الأرض : اميركا ، وروسيا ، فلا تمضي عليه ثلاثون سنة حتى يقوم بذلك كله ، ويغلب الدولتين الكبيرتين ويقيم للناس عالماً جديداً في نظمه وأوضاعه ولسانه .

هذا ما صنعه محمد ، لقد كانت فارس والروم يومئذ ، كأميركا وروسيا اليوم ، فهل أدركتم الآن عظم ما صنعه محمد ؟

صلى الله على محمد ، وسلم وبارك .

* * *

وبعد فهاهنا ولدت دولة الاسلام .

الدولة التي كانت يوماً مؤلفة من أربعة فقط : القائد ومعه رجل وامرأة وصبي ، أبو بكر وخديجة وعلي ، ثلاثة يمثلون البشر جميعاً : الرجال والنساء والأولاد . ثم صاروا أربعين ، فكان منهم العرب ، ومنهم الفرس يمثلهم سلمان ، والروم يمثلهم صهيب ، والحبشة يمثلهم بلال ، وكان منهم بيض وسمر وسود ، وكان في ذلك دليل واضح ، على أن دولة الاسلام ، فوق الأجناس والقوميات .

ثم صار الأربعون ثلاثمئة فانتصروا في بدر، ثم صاروا عشرة آلاف ففتحوا مكة، فلما صاروا مئة ألف مشوا يفتحون العالم.

* * *

من هذه الصخرة الصماء، سال الماء الذي روّى فيافي الجزيرة، فأخرجت للناس جنات الشام، وبغداد، والقاهرة، وقرطبة، ودهلي.

من هذه القفرة الموحشة استمدت دنيا الحضارة خصبها وفنها ونماءها.

من هنا، في ظلمة الليالي السود التي كانت تغمر دنيا الناس، قبسنا الشعلة، من هنا أخذنا المنار الهاديْ فحملناه شرقاً، وحملناه غرباً، فضوّأنا للمدنيّة الخيّرة طريقها خلال القرون.

لقد كان محمد ﷺ يصعّد في هذه الجبال، يبتغي فيها الخلوة بالله، ويد الله توجّهه حتى بلغ هذا الغار، فاتسع على ضيقه لمحمد حتى شمل الدنيا، ونَدِيَ صخره حتى أنبت الزهر، وكان منه عرش مُلك، لا لمحمد، فما كان محمد ﷺ ملكاً، ولا كان طالب ملك، ولكن لأمة محمد.

لقد ملكنا الدنيا يوماً، بالسلاح الذي حملناه من حراء، وسنبقى ملوكها ما بقي في أيدينا هذا السلاح.

كان محمد يقضي الليالي وحيداً على فراش الصخر، في الغار الموحش على حين كان ملوك الأرض، ينامون على الحرير والزيش، في القصور العامرة، وحولهم الخدم والأعوان، ولكن محمداً كان أعزّ في الغار وأكرم، لأنه كان يتطلع الى السماء، وهم ينظرون الى الأرض فلما اتصل بالسماء، ابتلع الغار القصور.

ترك لقريش دنياها حين أوى الى الغار، لم يأخذ منها إلا مقدار ما يسند جنبه ويمسك صلبه، فأعطاه الله فيه الدنيا والآخرة.

ما انزوى في سرداب في باطن الأرض، ولا في زاوية من زوايا البلد، ولكن اختار أمنع مرقب، في أرفع ذروة، ليطل على الدنيا من فوق، فيراها صغيرة فيزهد

فيها ، ويتطلع الى رحب السماوات . وليعلم أمُته أن الإسلام شرعة السمو ، وأنه دين المعالي ، وأن السعادة لا تنال الا بالمشقة والجهد .

* * *

وبعدُ فإن النهر يسير آلافاً وآلافاً من الأميال . فلا ينقطع سيره ولا تنضب مياهه ، ما دام من ورائه الينبوع يمدُّه .

وهذا ينبوع قوتنا نحن المسلمين .

هذا هو الينبوع ، ورده أجدادنا فصدروا عنه ملوك الأرض ، وأئمة الهدى ، وضللنا نحن طريقه ، وذهبنا نفتش عنه في باريز ولندن ونيويورك وموسكو ، فرجعنا بالذلة والضعف والهوان ، فهل نعود الى حراء ، لتعود لنا منزلتنا في الأرض ، ويعود لنا النصر والعز والعلاء ؟



وقفة في العقيق

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا
من دموع بوقفة في العقيق
« البحتري »

نشرت سنة ١٩٣٥

أصابتنا في المدينة عين من المطر، فحبستنا في الدار أياماً، وجاءت بعد محل من الأرض، وشحّ من السماء، فروّت البساتين، وأسالت الأودية فاستبشرت الناس بنا إذ كان قدومنا خيراً، وزيارتنا غيثاً، ومقامنا ربيعاً، وليس أجمل في أرض العرب من الربيع، ولا أجدى من الغيث، ثم انقشعت الغيوم بعد أيام، إلا جهاماً من السحاب رقيقاً كأنما نسجت أبراده خيوط النور. وحلى اليوم وطاب، فخرجنا من دورنا نستمتع بجماله وطيبه، ونملأ صدورنا بهذا النسيم الناعش، وعيوننا بهذه المناظر الخلابة، وآنافنا بهذا الأريج يتضوع من هذه التربة المعطرة بعطر السماء. وسرنا في « شارع العنبرية » نريد الحرم، فلم نكد نتعدى « المناخة » حتى قيل: قد سال العقيق. فإذا الوجوه تطفح بالبشر، وتفيض بالسرور، وإذا على كل لسان: قد سال العقيق. وإذا الناس كلهم يستعدون للخروج!

وهل يملك الناس نفوسهم، فيقعدون لا يخرجون الى العقيق، وقد سال العقيق؟ وهل يذكر عربي العقيق ثم لا يذكر الحب والشعر، والفن والجمال، والحياة الناعمة، والعيش الرغيد؟ أو لم يكن وادي العقيق رمز الهوى والشباب، ومغنى الغنى والغناء، ومثابة الفن والأدب، ومجمع العشاق، ونديّ الشعراء؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أبرع دواوين الأدب العربي وأحلاها؟ ألم تعش على أطراف العقيق العشرات من القصور الفخمة، والرياض النضرة، والمغاني

التي فاض منها الشعر والسحر والعطر ، على الدنيا كلها ؟ أليس لاسم العقيق حلاوة ؟ أما عليه طلاوة ؟ ألا يحلو في الأذن تكراره ، ويلذ اللسان ترداده ؟

ألم يقرأ أحاديث العقيق ، ويرو أشعار العقيق ، من لم ير قط العقيق ، فيهوى العقيق ، ويحن الى العقيق ؟

أو لم يسمع عبد العزيز بن الماجشون أن قد سال العقيق ، وهو خارج من صلاة الصبح ، فلا يتريث ولا يمر بداره ، بل يمضي اليه من ساعته ، فيلهو فيه بعض اللهو ، ويسمع فيه الغناء ، وهو هو في مكانته ووقاره ؟ فكيف بعامة الناس وشبابهم ؟

* * *

خرجنا مع من خرج ، فلم نجاوز السور ، ونترك عن أيماننا المحطة العظيمة ، الخالية الخاوية الباكية ، التي أضاعها أهلوها ، وأهملوها فنسوها ، حتى بدت لنا (الحرة) السوداء الواسعة ، فسلكنا طريقاً فيها جديداً ، على يسار الطريق القديم الذي يهبط الحرة ، على سلم منقورة في الصخر ، وهذه النقرة هي ثنية الوداع ، التي طلع منها رسول الله ﷺ فاستقبله الولائد بالدفوف ينشدن ، طلع البدر علينا .

والتي أشرق منها « البدر » على القلوب والعقول ، فأنارها فهي منه في نور الى يوم القيامة .

وسرنا في هذا الطريق نحواً من كيلين اثنين ، فانتهينا الى بئر عروة ، التي حفرها الإمام الزاهد العلم عروة بن الزبير ، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر ، ولم يبق له من أثر ، وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها ، وكان ماؤها يحمل الى الخلفاء وهم في دارات ملكهم ، يؤثرونه على ينابيع الشام وفرات العراق ، الى جانب البئر قهوة جديدة ، قامت على جذوع النخل ، فجلسنا على كراسيّ مستطيلة ، تتخذ في (مقاهي) الحجاز مجلساً وسريراً نطل على الوادي العظيم .

والوادي رغيب ، بين عدْوَتيه أكثر من مائة متر وعلى العدوة الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر ، وقد غني الوادي وامتلأ ، وكان السيل دفاعاً تلتطم أواذيّة ، وتصطخب أمواجه ، يرمي بالزبد ويطوّح بالفقاقيع ، ويجري متكسراً وله

خرخرة ، وله دردرة ، وعلى جانب الماء حصباء واسعة ، قد جلس فيها المدنيون حلقاً حول « سماورات » الشاي البراقة العالية يغنون ويطربون ، ما سمحت لهم « الحكومة » أن يغنوا ويطربوا .

* * *

جلس إخواننا يتجاذبون أطراف الحديث ، فيذكرون بلادهم وأوطانهم ، ويحنون الى الغوطة الغناء ، والعين الخضراء ، والزبداني وبلودان ، وتلك الجنان ، وجلست أحدق في ماء العقيق ، وأحن إلى أيامه الغرّ ، وماضيه الفخم وأفكر في حاضره المضّ ، وواديه القاحل ، فأطيل التحديق ، وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي ، وأنسى مكاني ، فأرى صفحة الماء تضطرب وتهتز ، وتختلط فيها الأنوار ، وتمتزج فيها الأضواء ، كأنما هي سبيكة ذهب أو قطعة ياقوت ، ألقي عليها نور وهاج ، ثم أراها قد استقرت وسكنت ، فاذا العقيق غير العقيق ، وإذا هو غارق في العطر والنور ، وإذا من حوله العشرات من القصور ، تضيء كأنها الثريا في السماء ، فتنعكس أنوارها في الماء فتتوارى النجوم استحياء ، وتغض العين خجلاً ، ثم تستتر ببراقع الغمام وتبكي ، فيضحك العقيق لبكاء السماء ، وتضحك الأرض لضحك العقيق !

وأرى قصر عروة العظيم ، قد سطعت في شرفاته الأنوار ، وحف به الشعراء والمغنون ينتظرون نزيله[1] الجليل ، الشاعر الغزل الفقيه المحدث عروة بن أذينة ، ليأخذوا من شعره ، ويحفظوا من حديثه ، فاذا طال بهم الانتظار ، وتصرم الليل ولم يفوزوا بطائل ، ذهبوا الى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة ، وأزمعوا أن يباكروه من الغد . وسكن العقيق وخلا إلا من شاعر أرق ،

يناجي طيف من يهوى ويبغي عنده السلوى

وخشع الليل ، وأنصت الكون ، فقام عروة على شَرفة القصر ، فراقه سكون الليل ، وفتنه منظر العقيق فهاج في نفسه الشوق ، فاندفع ينشد ،

---

(۱) هو قصر عروة بن الزبير ، وعروة بن أذينة كان نزيلاً فيه .

إن التي زعمت فؤادك ملّها   خُلِقَتْ هواك كما خُلِقْتَ هوى لها
فبك التي زعمت بها وكلاكما   يبدي لصاحبه الصبابة كلَّها
ويبيت بين جوانحي حبٌّ لها   لوكان تحت فراشها لأقلّها
ولعمرُها لو كان حبك فوقها   يوماً وقد ضَحِيَتْ إذن لأظلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقة فأدقّها وأجلها
لما عرضتُ مسلّماً لي حاجة   أرجو معونتها وأخشى ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي   ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال : لعلها معذورة   من أجل رقبتها ، فقلت : لعلها

فلما كان الصباح ، غدا أبو السائب المخزومي على عبد الله ، فقال له : أسمعت أبيات عروة أمس ؟ قال : وأية أبيات ؟ قال : وهل يخفى القمر ؟ قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملها ..

فأنشده إياها ، فلما بلغ الى قوله : لعلها ، قال أبو السائب : أحسن والله ، هذا والله الدائم العهد ، الصادق الصبابة ، لا الذي يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة   عني فأهلي بي أضنّ وأرغب

وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) حسن ظنه بها ، وطلبه العذر لها ؛ ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول : لا والله ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً الى الليل ! وينتظر عبد الله حتى اذا حان المساء ، وأثر الجوع في أبي السائب ذهب اليه فقال له : « جئت أنشدك وأحدثك » فيقول : « هات ما عندك » فيحدثه وينشده ، حتى ينشده بيتي العرجي :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا   صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر
فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول أبو السائب : أعده عليّ فيعيده أبو مصعب ، فيستفز المخزومي الطرب فيحلف بالطلاق لا ينطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته !

ويمر بهما عبد الله بن حسن وهو منصرف من مال له يريد المدينة فيسلم عليه ويقول، كيف أمسيت يا أبا السائب؟ فيقول،

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقبل ابن حسن على عبد الله، فيقول، متى أنكرت صاحبك؟ فيقول، منذ الليلة فيقول، إنا لله! أي كهل أصيبت به قريش! ثم يمضي.

ويمر بهما عمران بن محمد التميمي قاضي المدينة، يريد مالاً له، على بغلة له، ومعه غلام على عنقه مخلاة، فيها قيد البغلة، فيسلم ويقول، كيف أنت يا أبا السائب؟ فيقول،

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول القاضي، لعبد الله، متى أنكرت صاحبك؟ فيقول، آنفاً. فيسترجع القاضي ويهم بالمضي، فيمكر عبد الله بصاحبه ويقول، أفتدعه هكذا أيها القاضي وتمضي والله ما آمن أن يتدهور في بعض آبار العقيق. قال القاضي، صدقت، ياغلام، قَيْدَ البغلة. فيضع القيد في رجله وهو يشير بيده ويصيح،

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

* * *

ثم يضطرب الماء ويموج، فتنطمس الصورة فلا أرى في الماء إلا أشباحاً مبهمة مهتزة متداخلة. ثم تبين وتَضِحُ فإذا أنا أرى قصر عروة بن الزبير، وقد هيئ وفرش، ودار به الخدم والعبيد، واجتمع من حوله السراة والأعيان، وهم يتحدثون تبدو عليهم أمارات الملل والقلق فعل الذي ينتظر شيئاً ويبطئ عليه، وأدنو منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عروة بن الزبير، أحد الفقهاء السبعة، وقد كان في دمشق فأصابته الأكلة في رجله فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه جسده. وقيل له، نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً! فقال، لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافيته. قالوا، نسقيك المرقد (البنج). قال، ما أحب أن أسلب عضواً

من أعضائي وأنا لا أجد ألماً لذلك فأحتسبه . قالوا : فما تصنع إذن ؟ فأخذ في التهليل والتكبير وقال : شأنكم بها !

ودخل عليه قوم أنكرهم . فقال : ماهؤلاء ؟ قالوا : يمسكونك فإن الألم ربما عزب معه الصبر . وأنت شيخ كبير . قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي . فقطعت كعبه بالسكين حتى اذا بلغ العظم وضع عليه المنشار . . . فقطعت وهو يهلل ويكبر . ثم أغلي له الزيت في مغارف الحديد . فحسم به . فغشي عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه . فلما رأى القدم بأيديهم . دعا بها فقلبها في يده ثم قال :
أما والذي حملني عليك . إنه ليعلم إني مامشيت بك إلى حرام .

وأسمعهم يتحدثون كيف دخل في ذلك اليوم ابنه محمد وهو فتى المدينة جمالاً وكمالاً . وأدباً ونسباً . كيف دخل اصطبل الوليد فرمحته دابة فقتلته . وما يعلم عروة بشيء من ذلك . وكان عروة رجلًا صالحاً قد عاف الدنيا وانصرف عنها . ولم يرد منها إلا زاداً يقطع عليه الطريق إلى الجنة :

ذكر العتبي أن المسجد الحرام جمع مرة بين عبد الملك بن مروان وعروة وأخويه عبد الله ومصعب على عهد معاوية بن أبي سفيان فقال بعضهم لبعض : هلمّ فلنتَمنَّ .

فقال عبد الله بن الزبير : مُنْيَتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة . وقال مصعب : منيتي أن أملك العراقين . وأجمع عقيلتي قريش : سكينة بنت الحسين . وعائشة بنت طلحة . وقال عبد الملك : منيتي أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية .

فقال عروة : لست في شيء مما أنتم فيه . منيتي الزهد في الدنيا . والفوز بالجنة بالآخرة وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم .

فصرف الدهر من صرفه . إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله . فكان عبد الملك يقول : من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة . فلينظر الى عروة !

* * *

وأرى عروة وقد أقبل من سفره ، فدخل القصر وحار الناس كيف ينعون إليه محمداً ، حتى جاء عيسى بن طلحة فدخل عليه ، فقال عروة لبعض بنيه . اكشف لعمك عن رجلي لينظر إليها ، ففعل .

فقال عيسى ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، يا أبا عبد الله ! ما أعددناك للصراع ولا للسباق ، ولقد أبقى الله لنا منك ماكنا نحتاج اليه ، رأيك وعلمك .

قال عروة ، ماعزاني أحد عن رجلي مثلك .

قال فإني معزيك بمحمد ! فوثب فزعاً يقول ، ماله ؟ قال ، لقد لقي الله . فاصفر عروة ثم جلس يسترجع ويقول ،

اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء ، وأخذتَ ابناً وتركت أبناء ، فإنك إن كنت أخذت لقد أبقيت ، وإن كنت ابتليت لقد عافيت !

ويتبدل المنظر فإذا أنا أرى قصر سعيد بن العاص الذي يقول فيه عمرو بن الوليد ،

القصر فالنخل فالجمَّاء بينهما أشهى الى النفس من أبواب جيرون

وأرى فيه حركة وازدحاماً ، وأرى على الوجوه سحابة من غم ، وعلى الجباه سطوراً من كآبة ، فأغشى القوم أسألهم وأعلم علمهم ، فإذا هم واجمون ، لأن سعيد بن العاص يحتضر . وأي نبأ في المدينة أروع من موت سعيد ؟ وفيه يقول الفرزدق ،

ترى الغرّ الجحاجح من قريش إذا ما الأمر في الحدثان غالا
قياماً ينظرون الى سعيد كأنهمْ يرون به هلالاً

وأدخل القصر ، فأسمع عمراً ابنه يقول له ، لو نزلت إلى المدينة . فيقول له سعيد ، يابني إن قومي لن يضنوا عليّ بأن يحملوني على أعناقهم ساعة من نهارّ ، فاذا أنا متّ فآذنهم ، فإذا واريتني فانطلق الى معاوية فانْعَني له ، وانظر في دَيْني ، واعلم أنه سيعرض قضاءه فلا تفعل ولكن اعرض عليه قصري هذا ، فإني إنما اتخذته نزهة وليس بمال .

وما هي إلا أن يموت ، فيحمله الناس من قصره ، حتى يدفنوه في البقيع ، ورواحل عمرو بن سعيد مناخة . فيعزيه الناس على قبره ويودعونه ، ويمضي من ساعته الى معاوية فيكون أول من ينعاه له . فيتوجع له معاوية ويقول ، هل ترك ديناً ؟ فيقول ، نعم . فيقول معاوية ، هو عليّ .

فيقول ، قد ظن ذلك وأمرني ألا أقبله منك . وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه . فيكون قضاء دينه منه .

فيقول ، اعرض عليّ . فيقول ، قصره بالعرصة . فيقول معاوية ، قد أخذته بدينه . قال نوفل بن عمارة ، وكان دين سعيد ثلاثة آلاف درهم !

فيقول عمرو ، هو لك على أن تحملها الى المدينة ، وتجعلها بالوافية[1] . فيحملها له الى المدينة فيفرقها عمرو في غرمائه ، وكان أكثرها عدات وعدها سعيد . فيأتيه شاب بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة مولى له عليه . فيرسل عمرو الى المولى فيقرئه الصك فيبكي حين يقرؤه ويقول ، نعم ، هذا خطه ، وهذه شهادتي عليه . فيقول عمرو ، ومن أين لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم ؟ وإنما هو صعلوك من صعاليك قريش !

فيقول المولى ، أنا أخبرك . مرّ سعيد بعد عزله ، فاعترض له هذا الفتى ، ومشى معه حتى صار الى منزله ، فوقف له سعيد وقال ، ألك حاجة ؟ قال ، لا . إلا أني رأيتك تمشي وحدك . فأحببت أن أصل جناحك ؟

فقال لي سعيد ، ائتني بصحيفة . فأتيته بهذه ، فكتب له على نفسه هذا الدين وقال ، إنك لم تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا ، فإذا جاءنا شيء فائتنا .

فيقول عمرو ، لا جرم والله لا يأخذها إلا بالوافية . ياغلام ، أعطه إياها . فيعطيه عشرين ألف درهم وافية .

ويجيئه مولى لقريش فيقول ، إني أتيت أباك بابن مولاي (فلان) وقد هلك أبوه ليزوجه . فقال ، ماعندي ، ولكن خذ ماشئت في أمانتي .

(١) كانت الدراهم تنقص في وزنها وتزيد . وهو يعني بالوافية التامة الوزن .

فيقول له عمرو ، كم أخذت ؟ فيقول ، عشرة آلاف . فيقبل عمرو على القوم فيقول ، من رأى أعجز من هذا ؟ يقول له سعيد ، خذ ماشئت في أمانتي . فلا يأخذ إلا عشرة آلاف ! والله لو أخذ مئة ألف لأديتها .

* * *

ويتبدل المنظر ، فأرى العقيق قد ازدحم بالناس حتى كأنه المحشر ، وانتقلت اليه المدينة حتى لم يبق فيها كهل ولا غلام ، ذلك أن خبراً سرى في المدينة ، سريان الأمل في النفوس اليائسة ، فترك الناسُ ماهم فيه وأقبلوا على قصر سعيد ، يسمعون منه مالم يسمعوا ، وإذا ابن عائشة وهو أضَنّ خلق الله بالغناء ، وأسوأ الناس فيه خُلقاً ، ومن إذا قيل له غنّ ، قال ، ألمثلي يقال غنّ ؟ وإذا ابتدأ بغناء وقيل له أحسنت ، قطع الغناء مغضباً وقال ، ألمثلي يقال ، أحسنت ؟ وإذا هو يغني أطيب غناء وأطربه ، فلا ينتهي من صوت حتى يشرع في آخر ، لا يسكت ولا يستريح ، حتى عدّوا عليه مائة صوت ، وإذا خبره ، أن العقيق طغى وازداد ماؤه ، فاعتصم ابن عائشة بقصر سعيد بن العاص فملأ الماء عرصة القصر ، فصعد على قرن البئر ورآه الحسن بن الحسن ، وكان قادماً على بغلة له وخلفه غلامان أسودان ، كأنهما شيطانان فقال لهما ، امضيا رويداً حتى تقفا بأصل القرن الذي عليه ابن عائشة ، فخرجا حتى فعلا ذلك ، ثم ناداه الحسن ، كيف أصبحت يا ابن عائشة ؟ قال ، بخير ، فداك أبي وأمي . قال ، انظر الى من بجنبك فنظر فإذا العبدان ، قال ، أما تعرفهما ؟ قال ، بلى ، قال ، فهما حران ، لئن لم تغنّ مائة صوت ، لآمرنّهما بطرحك في البئر ، وهما حران ، لئن لم يفعلا لأقطعن أيديهما ، فغنى فلم ير الناس أحسن يوماً منه .

* * *

ثم رأى فتياناً من فتيان المدينة ، فيهم يونس الكاتب وجماعة ممن يغني ، قد خرجوا الى واد يقال له رومة ، من بطن العقيق ، فغنوا ، فأثار غناؤهم أهل الوادي ، فاجتمع إليهم الرجال والنساء ، حتى كان حولهم مثل مراح الضأن ، وأرى محمد بن

عائشة مقبلاً ، معه صاحب له ، حتى يرى جماعة النساء عندهم ، فيأخذه الحسد وتحزُ في نفسه الغيرة ، فيقول لصاحبه : كيف بك إذا فرقت هذه الجماعة ؟ فيسخر منه صاحبه ، فيهيج ابن عائشة فيأتي قصراً من قصور العقيق فيعلو سطحه ويلقي رداءه فيتكئ عليه ويغني بشعر عبيد بن حنين :

هـذا مقام مطَرّد هدمت منازلـه ودوره
نمت عليـه عداتـه كذباً فعاقبـه أميره
ولقد قطعت الخرق بعـ ـد الخرق معتسفاً أسيره
حتى أتيت خليفـة الر حمـن ممهـوداً سـريره
حييتـــه بتحيـــة في مجلس حصرت صقوره

فلا ينقضي الصوت إلا والنساء كلهن تحت القصر الذي هو عليه ، وتقوض مجلس يوسف ولم يبق فيه أحد !

وأرى غلاماً خلاسياً ، مديد القامة أحول ، قد ارتقى صخرة من العقيق منفردة ، فاضطجع عليها ضجعة خفيفة ، ثم هب فزعاً ، وهو يغني غناء ماسمع مثله السامعون يزعم أن الشيطان أجراه في مسامعه وهو نائم ، ويعيد الغناء وهو يتصيد الطير بحبالة في يده ، فيمر به شيخا مغني مكة ، ابن سريج والغريض ، وقد أقبلا على بعيرين لهما يزوران المدينة ويتعرّضان لمعروف أهلها ، ويلقيان من بها من صديقهما ، فيسمعان ثم يستعيدان الصوت :

القصر فالنخل فالجماء بينهما أشهى الى النفس من أبواب جيرون

فيعيده ، وهو مشغول عنهما بصيده ، فيقبل أحدهما على صاحبه فيقول : هل سمعت كاليوم قط ؟ فيقول : لا والله ! فيقول : فما هو رأيك ؟ فيقول : هذا غناء غلام يصيد الطير ، فكيف بمن في البلد ؟ أما أنا (فثكلته أمه) إن لم أرجع[1] !

* * *

(١) وكان المغني هو (معبد) المشهور .

ويتبدل المنظر فأرى حميدة بنت عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، وقد خطبها رجل عبشمي من أهل الشام ، فلما أراد أن يرتحل بها ، وحف بهما الناس يودعونهما سمعت رجلاً يغني بشعر أبي قطيفة :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا جنوب المصلى أم كعهدي القرائن
وهل أدؤر حول البلاط عوامر من الحي أم هل بالمدينة ساكن
إذا برقت نحو الحجاز سحابة دعا الشوق مني برقها المتطامن
ولم أتركنها رغبة عن بلادها ولكنه ماقدر الله كائن

فتسقط وقد أغمي عليها ، فيعالجونها كيما تفيق ، فإذا أفاقت سمعته يغني :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا قباء وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاء قبر محمد أراهط غرّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبي وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره

فتغشت بين النساء وسقطت ميتة .

. . . واضطربت الصورة وتضاءلت ، ثم توارت واختفت ، واذا صفحة الماء بيضاء ليس فيها صورة ، واذا الفن والمجد ، والعطر والنور ، وإذا الدور والقصور ، والأنس والحبور ، كل أولئك قد غطى عليه الفناء ، وابتلعه السيل الدّفاع ، ثم عاد يجري بين الآكام الجرداء ، وله خرخرة وله دردرة . . .

وإذا كل مابقي من هذه الدنيا الواسعة ، قهوة قامت على جذوع النخل ، وبئر نصبت عليها سانية[1] ، وجماعة قد تحلقوا يشربون الشاي ، ويطربون ومابهم ، لو حققت ، من طرب ، وإذا قصر سعيد أنقاض ماثلة ، وإذا سائر القصور تلال من الرمل الأحمر . . .

وإذا المجد والجلالة والجا ه كما يطرس السطور البنان !

* * *

(١) السانية : الناعورة .

في البقيع

نشرت سنة ١٩٣٥

خرجنا إليه في صفرة الطَّفل . وقد سكرت الريح . وسجا المساء . وكان اليوم روْحاً . فما تجاوزنا أزقة المدينة الضيقة الملتوية . وبدا لنا سور البقيع الهائل . الذي أقاموه في وجه مدينة الموت . كيلا تبتلع مدينة الحياة . حتى هبت الرياح لواقح . فأنشأت سحاباً . مالبث أن اكفهر وتطخطخ . وعم السماء . فأظلمت الأرض واسودت وعادت كئيبة تملأ النفس غماً . وكنا قد بلغنا البقيع . فرأيته موحشا مظلما رهيباً ؛ « قاتم الأعماق خاوي المخترق » .

وشممت منه رائحة الموت . فتهيبت دخوله في هذه الأمسية . وأزمعت العودة . ولكن صاحبي أصرّ عليَّ وشجعني . ثم أخذ بيدي ، فاذا أنا وراء السور . وإذا ساحة فسيحة . ممتدة الجوانب . مظلمة الأرجاء . ساكنة سكون الموت . ليس فيها بناء ولا قبة ولا تابوت . كأنما لم يسمح لبشر أن ينصب في حرم الموت معالم الحياة . أو يدنس دار البقاء بشارات الفناء . . فأغمضت عيني . وشددت على ذراع صاحبي . وجعلت أدنو منه لما أجد من الوحشة وأحس من الجزع . وما عهدتني من قبل أعرف الخوف أو أدري ما الجزع . فسار بي يقودني حتى هبط بي غوراً عميقاً . حال بيني وبين الفضاء وحجب عني السور الذي كنت أراه فآنس برؤيته . وأذكر أنها لا تزال وراءه دنيا حافلة بالنور والجمال والحياة . . فلم أعد أرى شيئاً . وامحت من خيالي كل صورة . وطارت من رأسي كل فكرة . إلا فكرة الفناء . وصورة الموت . وأحسست وأنا أهبطه أني هابط إلى قبر . وخيل إليّ أن أشباح الموتى ترقص من حولي . وتدنو

مني وتمسني وتهم بعناقي ، فتقف كل شعرة في جسمي ، ويزداد قلبي خفقاناً ، وتتخاذل ركبتاي حتى أهم بالسقوط ، ويطن في أذني صوت رهيب مستطيل يلقى في روعي أنه نشيد الفناء . وكان كل مايحف بي مخيفاً رائعاً ، فالقبور والظلام الشامل ، والسكون العميق ، والسماء التي لا تطرف فيها من النجم عين ، والمكان الذي لا تبلغه نسمة من نسمات الحياة ، وجلال الموت ، كل أولئك كان يخيفني ويصب في قلبي الوحشة والفزع . . . ثم صاحت بومة على سور المقبرة . . . فاستمسكت بصاحبي وقلت ، عد ويحك !

قال ، كيف أعود وقد بدأت الزيارة . . . هذا قبر عثمان !

وكأن ذكر عثمان قد رجع إليّ نفسي ، فنظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر ، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صففت على وجه الأرض ، وفرشت من حولها رمال حمراء ناعمة ، كحوض أعدّ لتزرع فيه الورود فقلت ،

أتهزأ بي يا . . .

ـ قال ، لا والله ، ولكنني أقول الحق . هذا قبر عثمان .

قلت ، ياللعجب ! أتحرثون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لتزرعوا فيه الورود ؟

ـ قال ، أي ورد ؟ كل القبور هكذا . . .

ـ قلت ، لعلك أخطأت القبر . اذهب فاقرأ اسمه .

ـ قال ، قد طمست الأسماء فما عليه من اسم ولكن ثق أنه هو . أعرفه من هذه الغضاة !

وأشار الى غضاة قريبة منه ، لا أدري كيف دخلت حرم الموت فأنست بها ، وذكرتني دنيا مليئة بالصور ، مترعة بالحياة نفت عني بعض ما أنا فيه من الغربة والجزع . فقلت ،

ـ وكيف تعرف غيره من القبور ؟

قال ، ماأعرف إلا قبور آل البيت . وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط عليّ ونسيته . ولكن يعرفه إذا شئت (العم حَمَدْ) خادم المقبرة . وبعض الشيوخ من أهل المدينة .

* * *

وانقطع الحديث فقد استشرى البرق وائتلق ، ورعدت السماء . ثم هطلت بمطر بُعاق ، قشر وجه الأرض ، وجعل فيها بِركاً وأنهاراً . فلم نجد شيئاً يعصمنا من الماء نأوي اليه ، إلا هذه الغضاة وما تكاد تعصمنا . . . والمطر في الحجاز أعجب شيء رأيته ؛ فبينا الشمس طالعة ، والأرض متسعّرة ، واليوم خدِر عصيب ، إذ السماء قد تبلدت بالغيوم ، ودوّت بالرعد ، والأمطار قد نزلت كأفواه القرب ، واليوم قد عاد قراً بارداً ، ثم لا تلبث أن تنجلي السحب ، وتصحو السماء ، فتنظر فإذا الأرض قد بُدّلت غير الأرض ، وإذا السيول قد جرفت البيوت وخرّبت الطرق وطمست المعالم ، كما يطمس سطر سال عليه الماء .

ولقد ظنناها سحابة صيف ، ولكنها لم تنقشع ، ولم تزدد الأمطار إلا شدّة وتهطالاً ، ولم يزدد الرعد إلا قعقعة وقصيفاً ، حتى كأن الدنيا مجنونة عاودتها نوبتها ، فهي تصرخ وتمزق ثوبها بيدها ، وتشقّ حنجرتها بصراخها . . . بَيْد أني لم أكن أحفل البرد ولا المطر ، ولم أكن أذكر الخوف ولا الجزع ، ولم أكن أفكر إلا في هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا وملكوا العالم ، ثم ضنوا عليهم بقبر يعرف ، أو اسم يقرأ ، أفكر في هؤلاء العظماء .

. . . كم انحنت تحت أقدامهم هام الجلاميد الصمّ حتى وطئوها ، كم استكانت لهم هذه الرمال الهائلة حتى قطعوها ، كم دانت لهم البادية المهلكة حتى جابوها ، ليخرجوا منها فاتحين إلى أرض الرياض والعيون ، فيبلغوها رسالة الصحراء وينشروا فيها دين الصحراء !

لقد انتصروا على البادية المهلكة ، والشمس المحرقة ، والجوع القاتل ، والعطش المميت ، والعدوّ الجبار ، والجيش الجرار . ثم انتصر عليهم البقيع ، فاذا هم مستقرون في

أحشائه ، واذا هم قد ناموا فيه الى الأبد ، فلن يذهبوا الى الحرم ليقيموا الصلاة ، ولن يمتطوا ظهور جيادهم ليمشوا الى الجهاد ، ولن يحملوا الراية الاسلامية لينصبوها على أقصى العالم ، بل هم لا يرون طلعة الشمس ، ولا يبصرون صفحة القمر ، ولا يسيرون على وجه الأرض . .

انتصرت أيها البقيع ، فما وفيت ولا أنصفت . . جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، ونشروا راية العدل على الأرض ، وأضاؤوا طريق الهدى للناس ، ليستريحوا في أرجائك ، ويناموا في حماك ، فحرمتهم قبراً يعرف لهم ، وحجراً تكتب عليه أسماؤهم .

مانريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التبجيل والثناء فإن لهم من أسمائهم الكبيرة غنية عن كل تبجيل وثناء[1] ، لكنا نريد ألا تنسى هذه الأسماء .

سيموت الشيوخ الذين يعرفون هذه القبور ، أفيرضيك أيها البقيع أن يأتي الجيل الجديد ، فيفتش عن هذه القبور فلا يجدها فيقول ، هاتوا المعول ، هاتوا الأحجار . . . ابنوا هنا ملعباً لا نجد في المدينة خيراً من هذه الساحة ، إنها لا تُترك أرض سدى ! ثم بينما هم يتقاذفون الكرة إذا بهم يخطئون فيتقاذفون واحدة من هذه الجماجم . . .

أنسيت أيها البقيع أن كل مسلم يحس أنه يملك في هؤلاء الأبطال ملكاً ، وأن هذا الرفات ليس من حقك وحدك ، ولكنه حق لكل مسلم ولد أو يولد إلى يوم القيامة . . . وإنك إن طمست هذه الأسماء حتى يجهلها المسلمون ، أسأت الى كل المسلمين ؟

أنسيت أن أضيافك عظماء البشر ، أفتستحق العظمة هذا الإهمال الشائن ، وهذا النسيان المخزي ، أم ذنبهم أنهم لم يكونوا فرنجةً ولا انكليز ؟ ! أفيكون (البانتيون) لابنائه أوفى منك لأبنائك أيها البقيع ؟

إنه لم ينقص من مجدهم أنها لم تشيد لهم القبور ، ولم تنقش أسماؤهم على

---

(١) ولا نريد أن تقام لهم هذه (المقامات) التي ترتكب عندها أنواع المعاصي ويؤتى فيها المنكر ، فنحن من أشد الناس لهذا إنكاراً .

صفائح الحجر ، وحسبهم أنهم شيدوا مجداً ، وبنوا أمة ، وكتبوا تاريخاً ، فإذا نسي التاريخ أبطاله ومنشئيه ، فقديماً نسي التاريخ الأبطال ! وهل ذكر التاريخ أولئك الجنود الذين سقوا الأرض بدمائهم حتى أنبتت مجد نابليون فاقتطفه .

هل ذكر أولئك القصاص الذين أهدوا الى شكسبير قصصهم الرائعة فرواها ؟ هل ذكر أولئك الملاحين الذين غامروا بأرواحهم حتى أوصلوا كولومب الى الساحل الجديد وأمسكوا بيده حتى نزل إليه ؟ . . ماذا كان نابليون وشكسبير لولا أولئك الأبطال المجهولون الذين نسيهم التاريخ .

لا بأس أيها البقيع فإن البطل الحق هو الذي لا يعرفه أحد !

وازداد الرعد قوة وهزيماً ، وعقّ البرق وتكلّخ وأغدقت السماء وجادت ، وعصفت الريح وأعجت ، وجنت الدنيا جنونها ، فنظرت فإذا السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبق له من أثر ! ..

فقلت ، أطبقي يا سماء وتشققي يا أرض ، وتصدعي يا جبال ..

إن من ملكوا العالم لا يجدون القبور .



من المدينة الى مكة

من مذكراتي سنة ١٩٣٥ (لم تنشر)

الأحد :

صلينا المغرب في الحرم وقمنا في الروضة مقاماً نسينا فيه الدنيا وما فيها ، ونظرنا اليها كمن يطل عليها من نجم بعيد فيراها كذرة صغيرة تائهة في الفضاء ، ثم خرجنا من المسجد من باب السلام ، نسير في هذه الأسواق الضيقة المزدحمة بالحجاج ، لانتنبه الى شيء فيها ، لأننا تركنا قلوبنا في الحرم ، حتى جاوزنا الأسواق الى شارع العنبرية الفسيح ، حيث يقيم الأمير وقد نزلنا أنا والشيخ ياسين الرواف ضيوفاً عليه دون سائر الإخوان ، فوجدناه جالساً على الباب ، فودعنا وشيعنا الى باب العنبرية ، وسلكنا على وادي العقيق فذكرنا العقيق ، وأهل العقيق ، وشربنا من بئر عروة ، وكان الليل قد أرخى على الأرض ستائره ، فلم نعد نبصر مما حولنا شيئاً فسكتنا فلم يكن يسمع الا صوت السيارة وكلمة من أحدنا ، تشق هذا السكون ، ثم تمضي فيعود الليل ساكناً هادئاً . وكان لكل واحد منا شاغل من عواطف نفسه عن الكلام . فقد ودعنا القبر والروضة ومررنا على العقيق ، واستقبلنا الصحراء ، فهاج في نفوسنا وداعُ الروضة ، وذكرى العقيق ، وجلالُ الصحراء ، كثيراً من العواطف والذّكر .

ثم لاحت لنا أضواء باهتة من جانب الأفق ، ثم دنونا منها فاذا هي عشش صغيرة مبنية من سعف النخل ، فيها كراسي مستطيلة من القش تتخذ مقاعد للجلوس ، وسرراً للنوم ، وفيها الشاي والقهوة ، حتى أنها تسمى (شايخانات) أي مكان الشاي . وهي مبثوثة على الطريق بين المدينة ومكة .

فسألنا عن المكان ما اسمه ؟ فقالوا : انه آبار علي ، وهو محل الإحرام . فتوضأنا ثم نزعنا ثيابنا ولبسنا ثياب الإحرام ، ولم يبق بيننا من فرق ، ولم يعد يمتاز واحد عن الآخر ، وتحققت بيننا المساواة التي تسعى لها الحضارة ، ويطلبها الناس فلا يصلون اليها ، كما تتحقق بين مئات الألوف من الحجاج الذين يؤمون البيت كل سنة ، وفيهم الملك والسوقة ، والغني والفقير ، والكبير والصغير ، فاذا دخلوا أرض الحرم

صاروا سواء أمام الناس ، كما هم سواء أمام الله ، ولم يبق في نفس الكبير كبر ، ولا في نفس الصغير ذلة ، وانهزم المال ولم يبق له عمل في المفاضلة بين الناس وبقي العمل للفضيلة وحدها ، لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى .

وركبنا بعدُ السيارات ، فكنا نرى في الطريق الأربعة أو الخمسة من الرجال ماشين على الإبل من مكة الى المدينة ، أو من المدينة الى مكة ، وترى الرجل الواحد يمشي منفرداً في ظلام الليل ، في طرق لا يعرفها وأرض لا يألفها ، والمرأة الواحدة تمشي منفردة لا يعتدي عليها أحد ، ولا تخشى إلا الله ، حتى اذا بلغنا موضعاً يقال له (المساجيد) رأينا أبنية بيضاً جديدة ، فيها فندق للمسافرين ، ومركز للشرطة ، ففتشوا تذكرة المرور ، ثم اجتزنا المساجيد ، نسير في أودية ملتوية الى (بئر ابن حصانه) وكانت الساعة الثانية صباحاً ، وقد خارت قوانا من النعاس ، فنمنا فيها بلباس الإحرام ، على كراسي القش المستطيلة ، وقد وجدت في هذه النومة لذة لا أجدها على سرر الديباج والحْرير واستيقظنا بعد ساعتين لنستأنف المسير .

الاثنين

ولما جلسنا نشرب الشاي حفّ بنا أكثر من خمسين سائلاً من طفل صغير ، وامرأة عجوز ، ورجل شاب ، وآخر شيخ ، كلهم يطلب حسنة ، حاجي ، سلامات يا بويا ، يا بابا ، يا بلي .. ولم نتخلص منهم إلا بشق الأنفس ، وكنا كلما سرنا كيلا أو كيلين ، وجدنا الصبيان والنساء ، يلحقون بنا يشتدون ، ولهم صياح عجيب ، سلامات ، حاجي سلامات ، يا بويا ، يا بابا ، يا بلي ... يقولونها في سرعة عجيبة ، وأصوات عالية ، وكانت هذه هي قبائل بني حرب ، التي كانت أيام الأتراك وما بعدها مفزع الحجاج ، ومثار الخوف ، وكانت تفسد الأرض ، وتهلك الحرث والنسل ، أصبحت اليوم تسأل الناس ، لا تجرؤ أن تمد اليهم يداً بغير السؤال ، فسبحان مغير الأحوال .

ووجدنا عجباً من حجاج الهنود يسير الواحد منهم منفرداً حافياً ، يحرق الرمل قدميه ، لا يحمل شيئاً من زاد أو ماء يسأل عن المدينة وبينه وبين المدينة ثلاثمائة أو أربعمائة كيل ، لا يقطعها الماشي في أسبوع ! فكنا نحمل من نستطيع حمله حتى نبلغه (شايخانه) نلقيه فيها ، وقد نزل الحجاج في هذه (الشايخانات) ، واصطفت

إبلهم صفاً واحداً مادة أعناقها . ومن ورائها مراكب (شقادف) الحجاج مصفوفة على الأرض وهي أشبه ما تكون بسرر من الخشب عليها الكلل ، توضع على البعير واحدة من هنا وأخرى من هناك فيجلس فيها الحاج ومن حوله الأرائك والوسائد .. وفيها الأبيض والأحمر والأخضر ولها وهي مصطفة منظر عجيب .

وبلغنا (رابغ) حوالي الساعة الرابعة (غروبية) ، ورابغ إمارة صغيرة فيها قصر للأمير ومن حولها نخل وبيوت وعشش ، فاسترحنا فيها ساعة وشربنا القهوة عند الأمير ، وسرنا الى جدة فبلغناها في الساعة الثامنة . وكانت الطريق من رابغ سهلة هينة مستوية إلا بعض رملات وكان هواء البحر يهب علينا رطباً ، ونحن عري إلا من ثياب الاحرام والنعاس غالب على أجفاننا فكنا نغفو قليلا ، ثم تضطرب السيارة ، أو تعرض لها حفرة ، فنفيق فزعين حتى وضح لنا البحر والمراكب ماخرة فيه وقيل هذه (جدة) .

ولجدة ككل مدن الحجاز سور ، ولها أبواب ، ووراء السور شارع عريض نظيف ، ومنازل جديدة للأمير وللقناصل ، فاسترحنا ساعتين في دار الأمير وكان في مكة ، وشربنا القهوة ، وزرنا السيد محمد نصيف وهو وجه جدة وله مكتبة عامرة ، ومن لم يزر السيد محمد نصيف ، فكأنه لم يزر (جدة) .

وركبنا من (جدّة) وكانت الطريق معبدة ولكنها مخربة في بعض المواضع ، والطريق من جدة الى مكة لا تبلغ السبعين كيلاً ، فكنا نسرع فيه حتى إذا بلغنا (العلمين) قيل هذا أول الحرم ثم بدت لنا مكة من فم الوادي ، بيوتها مرتفعة ضيقة كناطحات السحاب ، وكانت الشمس جانحة للغياب فدخلنا من باب جرول ، وجرول أودية متسعة تلتقي في الوادي الذي يؤدي الى الحرم ، وهي نزهة جميلة فيها بيوت عالية رفيعة منها ما هو بست طبقات أو بسبع تمتاز برواشنها ، و (الروشن) شباك عريض من الخشب المزخرف المزوّق ، فسرنا بثياب الاحرام ، والناس قلّما ينظرون في مكة الى زيّ أحد لأنها ملتقى الأمم ، ومعرض الأزياء ، ومجمع الشعوب ، حتى بلغنا الحرم .

وشعور المسلم حين يصل الى باب المسجد الحرام ، وتبدو له الكعبة لأول مرة ، لا يمكن أن يصفه قلم كاتب ولا لسان أديب .

المنزل الأوّل للبشر

رأي جديد أدعو الكتاب والباحثين،
الى تمحيصه وتصحيحه

نشرت سنة ١٩٦٥

إذا فخر ناس بأن لديهم من البقاع الأثرية، ما ترجع ذكراه أربعين أو خمسين قرناً الى الوراء، وما يتصل بأقوام كانوا قبل أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة، فإن هاهنا، في مكة، ذكرى توغل في الماضي مئة ألف سنة ...

نعم، مئة ألف سنة، بل أكثر من مئة ألف سنة على التحقيق، إنها أقدم ذكرى بشرية.

لا، لا تقولوا، هات النص التاريخي، فإني أتكلم عن عهد لم يكن قد ولد فيه التاريخ ولا حملت به أمه.

عهد أقدم من التاريخ نفسه، عهد آدم وحواء.

إن الرواية المتوارثة، التي يتناقلها الأبناء عن الآباء، من أقدم الأزمنة، هي أن آدم وحواء، لما هبطا من الجنة[1] افترقا، وتاها في أرجاء الأرض، فمشى آدم يفتش عنها ويناديها، ومشت هي تفتش عنه وتناديه، فكان لقاؤهما هنا، في عرفة.

في هذه القفرة، لا في السهول الممرعة، ولا على ضفاف الأنهار الفياضة ولا على شم الذرى المتعممة بالثلج، ولا في الأودية المتوشحة بالغابات، ولا على حفافي العيون المتدفقة بالزلال العذب.

(١) الأرجح من قولي العلماء، أنها ليست هي جنة الآخرة الموعودة ولكنها (أي الجنة التي كان فيها آدم وحواء) جنة غيرها.

هنا ، كان التعارف والتلاقي .

وهنا قضى أبوكم آدم ، وأمكم حواء (شهر العسل)

فاذا كان في الدنيا أمكنة ولد فيها تاريخ قوم ، أو سجلت فيها بطولة أمة ، أو عاشت فيها ذكرى شعب ، فهذا المكان ليس لقوم ، ولا لأمة ، ولا لشعب ، ولكنه لجميع بني آدم ، وبنات حواء .

وهاهنا في هذه البلاد ، توفيت (السيدة الأولى) في الأرض : حـواء .

لا ، ما حضرتُ وفاتها ، ولا مشيتُ في جنازتها ، ولا وقفت على دفنها ، ولكن دلتني عليها الرواية الأخرى ، التي يحملها الخلف عن السلف ، من عشرة آلاف سنة ، بأن قبرها في جدة[1] البحر ، من أرض تهامة .

إني لأذكره ، في نحو وزارة الخارجية اليوم ، وكان طوله أكثر من مئة متر ، وبين موضع رأسها ، وموضع سرتها ، يصطف مئة رجل ... هكذا تصوروها !

صحيح أنها رواية شعبية ، لا تقرر حقيقة تاريخية ، ولكن لماذا لم تأت رواية أخرى ، بأن قبرها في جبال كشمير أو في غابة بولونيا في باريز ، أو بجوار الهرم في الجيزة ؟ .

إنه لا دخان من غير نار ، ولا يمكن أن تعم هذه الرواية ، وتنشر ، وتمشي في العصور ، إلا ولها أصل .

فهذه البلاد ، إذن ، هي المنزل الأول للبشرية .

* * *

وإذا مررنا مع العصور ، رأينا هذه الجزيرة العربية مثل الأم ، تلد الأطفال ، وتحضنهم ، حتى إذا كبروا ، أطلقتهم فذهبوا ، فأسسوا الدول وبنوا الممالك .

---

(١) كنا ننطق بها بضم الجيم ، من أيام الصغر ، قبل أن تكون معركة (الجيم) في صحف المملكة ، بأزمان .

قوم عاد ، كانوا فيها ، في (الربع الخالي) الذي لم يكن خالياً ، بل كان حالياً بالزرع والضرع والمدن والقرى ، ولم يكن صحراء ، بل كان يوماً سهولاً مخصبة معشبة ذات مياه وعيون . وكان فيه يوماً إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد .

روى ذلك علماؤنا ، ثم جاء المؤرخ الطلياني ، الأمير كاتياني ، فبنى عليه نظريته التي يغني علم القراء بها ، عن الكلام فيها ، ثم جاء مستر فيلبي ، أو الشيخ عبد الله فيلبي كما يحب أن يدعى .. فرأى بالعيان ، ما ظنه كاتياني بالوهم .

رأى في الربع الخالي ، شمالي حضرموت ، بقايا (مستحاثات) لحيوانات بحرية ، بقايا أسماك في جوف الصحراء .

فهذه الجزيرة ، كانت تحمل كما تحمل الأنثى ، ثم تتمخض ، ثم تلد .

إنها تضطرب عند الولادة ، وتموج مثل موج البحر ، تضرب موجة قبيلة القبيلة التي أمامها ، فتزيحها عن مكانها ، وهذه تزيح التي بعدها ، حتى تصل الموجة الى القبيلة التي تقيم على حافة الجزيرة ، فتضربها فتطردها فتخرج من الجزيرة ، لتضرب في آفاق الأرض .

ولقد سمعت من الأستاذ عبد الرحمن عزام لما كان سفير مصر في العراق من ثلاثين سنة ، أن هذا ما يشاهد الآن ، في شمالي أفريقية ، إذ تموج القبائل فيها ، وتتدافع حتى تصل الدفعة الى أدنى القبائل من مصر ، فتدخل واديها وتشتغل مع الأيام بالزراعة وتتمصر ، وإن في الصعيد أسراً عربية الأصل ، جاءت من هذا الطريق ، منها أسرة (عزام) و (الباسل) وأسر أخرى ذكرها ، ونسيت من بعد العهد أسماءها .

ولخالي الأستاذ محب الدين الخطيب رسالة في هذا الموضوع ، قليلة الصفحات ، كثيرة الفوائد ، اسمها (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب) .

وقدروا لكل موجة عشرة قرون ، ففي كل ألف سنة أو نحوها تخرج من الجزيرة ، خارجة تضرب في الأرض وتنشئ الممالك ، وتقيم العمران .

خرجت موجة الى الغرب ، فكان منها أول أسرة حكمت مصر ، من خمسة آلاف سنة .

ثم خرجت موجة الى الشرق ، فكان منها الكلديون الأولون والسومريون وحكام العراق الأقدمون .

ثم خرجت موجة أخرى الى الشرق ، فاستقرت حينا في (البحرين) ، ثم غربت حتى بلغت سواحل الشام ، فكان منها الفينيقيون ، الذين علموا الناس الكتابة ، وجرؤوهم على ركوب البحار ، فكانوا أساتذة اليونان ، وكان من إحدى مستعمراتهم ، القائد العبقري هاني بعل (أنيبال) الذي قهر روما ، لما كانت روما سيدة الكتائب ، ولكنه حينما استمرأ العيش في ايطاليا ، أفسد النعيم جنده ، وأذهب الترف من نفوسهم جلادة أبناء الصحراء وعلمهم رخاوة أهل المدن ، فغلبوا بعد أن كانوا هم الغالبين .

وموجة بعدها الى الغرب ، حملت العمالقة الى مصر فحكموها أمداً طويلاً ، وكانوا ملوك صلاح واصلاح ، وإن دعوهم (الهيكسوس) أي ملوك الرعاة ، وعلى عهدهم دخل يوسف الصديق أرض مصر .

ثم كانت الموجة الكبرى ، الموجة الخيرة النيرة ، التي حملت الحق والخير والسعادة ، لا الى العراق وحدها ، ولا الى الشام ومصر فقط ، بل الى الدنيا كلها ، من مشرق شمسها الى مغربها ، موجة الاسلام .

* * *

من هنا خرج الاسلام ، وهنا ولدت من قبل العربية .

نعم إن العربية ولدت هنا ، ولي يا سادة ، (نظرية) فاسمعوها مني وجادلوني فيها ، إن لم تقبلوا بها .

يتعلم الأولاد اليوم ، وتعلمنا نحن من قبل ، أن العرب ثلاثة ، عرب بائدة كطسم وجديس والعمالقة وجرهم الأولى ، وعرب عاربة هي حمير وكهلان ، وسائر أبناء قحطان ، وعرب مستعربة هم أبناء اسماعيل .

وتلقينا هذا ، ويتلقاه التلاميذ اليوم ، على أنه حقيقة مسلمة . ولكنني فكرت فيه بعد أن كبرت وعقلت ، وجاوزت حد التلقي ، فوجدت أنه مناف للواقع ، مخالف للقرآن .

وهاكم البيان :

أسأل أولاً : ما معنى (المستعرب) ؟ المستعرب ليس عربياً ، ولكنه دخيل على العربية ، إنها مثل كلمة (المستشرق) . فماذا تفهم من كلمة (المستشرق) ؟ أليس المستشرق العالم الغربي الذي اشتغل بعلوم الشرق .

انه ليس شرقياً ، بل هو (مستشرق) .

وكذلك المستعرب ، ليس عربياً بل هو طارئ على العربية .

هذا التقسيم كلام من كلام الناس ، لا يدرى من قاله ولا يعرف له دليل ، فهل نأخذ به ، أم نأخذ بكلام رب الناس ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ؟

إن الله سمى محمداً (النبي العربي) ، ووصف القرآن ، بأنه نزل بلسان عربي مبين ، وهذا التقسيم يجعل أبناء اسماعيل مستعربين ، فيكون محمد رسول الله ﷺ ، مستعرباً لا عربياً ، ويكون القرآن قد نزل بلسان المستعربين ، لا باللسان العربي المبين .

إن من الثابت ثبوتاً لا شك فيه ، أن لسان من يسمون بالعرب العاربة[1] يختلف في مفرداته وفي تركيب جمله عن اللسان الذي نزل به القرآن ، فأيهما هو العربي ؟

---

(١) لا أقصد لسان الازد وكندة واللخميين وقوم غسان وأمثالهم من اللذين نزحوا إثر انهيار السد ، ولا لسان اليمن قبل الاسلام بقرن أو قرن ونصف القرن ، فهذا لا يكاد يختلف عن لسان قريش إلا قليلاً . ولكن أقصد من كان قبل ذلك من أهل اليمن الأولين ، وقد خبرني الأستاذ العالم الرحالة الشيخ خليفة شعبان أن هذا اللسان القديم هو الذي تنطق به اليوم قبائل مهرة شرقي حضرموت .

أبو عمرو بن العلاء ، شيخ الرواة ، وأستاذهم يقول : ما عربيّة حمير بعربيتنا ، ولا لسانهم بلساننا ، وانجلو جويدي ، المستشرق الطلياني ، وضع في كتابه ، صور نقوش وكتابات وجدت في اليمن ، ليست عربية ، ولا نفهمها نحن عرب اليوم . مع أننا نفهم القرآن ، ونفهم شعر الجاهلية ، وقصة سيف بن ذي يزن مع القرشي الذي قال له (ثب) معروفة ، وقوله (من دخل ظفار حمر) .

فأي اللسانين هو العربي ؟

العربي هو لسان القرآن ، ومن قال غير ذلك كان في نظر الاسلام مرتداً مستحقاً لعقوبة الموت ، لأنه كذب القرآن .

فالعرب العاربة إذن هم قوم محمد ، واللسان العربي الأصيل هو اللسان الذي نزل به القرآن .

* * *

شيء آخر ، رأي لي ، يبدو لكم اذا سمعتموه أول مرة غريباً ، ففكروا فيه ، ولا تردوه بادي الرأي[1] ، ثم إذا رأيتموه بعد الفكر باطلاً ورددتم علي بالدليل ، شكرت لكم ، ورجعت عن رأيي ، وثقوا أن أهون شيء علي أن أرجع عن الخطأ اذا تبين لي .

إن ابراهيم هو أبو العرب العدنانيين ، فالقرشي مثلا ينتسب اليه ، ويراه أباه الأعلى .

وابراهيم أبو اليهود العبرانيين ، فالعبراني ينتسب اليه ، ويراه أباه الأعلى .

فهل كان ابراهيم ، عربياً قرشياً ؟ لا ، قطعاً .

هل كان ابراهيم ، يهودياً عبرانياً ؟ لا ، قطعاً .

فما معنى هـذا ؟

---

(١) يقال ، بادئ الرأي ، بادئ بدء ، اذا كان ذلك أول مرة .

كيف يكون أبا العرب وليس عربياً ؟ وأبا العبرانيين وليس عبرانياً، معناه الواضح ، أن الجنس العبراني ، إنما ابتدأ وجودهم بعده ، والجنس العربي (أعني الذي لسانه لسان القرآن ،[1] ومنه قوم محمد النبي العربي) إنما ابتدأ وجودهم بعده .

كل جنس من أجناس البشر ، أو كل عرق بالتعبير الصحيح ، له بداية ، لأن الناس كانوا كلهم محصورين في رجل وزوجته ، في آدم وحواء ، ثم تفرعوا فروعاً ، وكانوا عروقاً وأجناساً ، تفرعوا بافتراقهم واختلاف بلدانهم وتنوع بيئاتهم ، وتفرعوا بالتزاوج بين أجناس مختلفة وعروق متباينة ، وهذا بحث طويل ، فيه كتب كثيرة ، وهو علم يدرس في الجامعات .

ولما تزوج يعقوب (اسرائيل) بامرأة من الكنعانيين ، نشأ قوم ، لا هم عراقيون كأبيهم ، ولا كنعانيون كأمهم ، بل هم جيل جديد ، هم العبرانيون .

ولما تزوج اسماعيل ، بامرأة من جرهم ، نشأ جيل جديد هم العرب .

فالعبرانيون بنو اسرائيل ، والعرب بنو اسماعيل .

ونحن اذا وسعنا معنى كلمة (العربي) وأخذناها بنوع من التجوز ، دخل تحتها عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس والعمالقة وسائر تلك القبائل .

أما اذا أردنا تحديد العربي الأصيل ، وجعلنا الأصل الذي نرجع اليه ، والأساس الذي نعتمد عليه ، الحقيقتين المسلمتين ، وهما كون محمد عربياً أصيلاً ، وكون لسان القرآن هو العربي الأصيل ، كان العرب هم أبناء اسماعيل[2] .

وكان هذا التقسيم الى عرب عاربة ، ومستعربة ، باطلاً ، منقوض الأساس !

هذا ما عندي ، فما الذي عند الأساتذة المخالفين لي في هذا الرأي ؟

---

(١) من قيس أو يمن .

(٢) قال بعض العلماء إن اسماعيل هو أبو العرب جميعاً قحطانيين وعدنانيين ، وربما كان هذا هو الحق .

من ذكريات الحج[1]

نشرت سنة ١٩٥٥

في هذه الساعة يقوم الحجاج في عرفة ، يلبون ويهللون واذا لم يسعدكم الحظ بأن تكونوا اليوم معهم ، فلا أقل من أن تستمعوا الحديث عنهم ، لذلك أستأذنكم أن أجعل حديثي اليوم عن الحج .

ألا ترون العروق الشعرية كيف تحمل الدم من أطراف الجسم ثم تصبه في الأوردة الكبار ، حتى يدور دورته في القلب مجتمعاً ، وفي الرئة منتشراً ، فيصفو بعد العكر ، وينقى من الوضر ، ويعود في الشرايين دماً أحمر جديداً ، بعد أن كان في الأوردة دماً أسود فاسداً ؟ كذلك الحج .

يأتي المسلمون من آفاق الأرض الأربعة ، أفراداً ثم ينتظمون جماعات ، ثم يدورون حول الكعبة قلب الأرض المسلمة ، ثم ينتشرون في عرفات رئة الجسم الاسلامي فتصفي نفوسهم من أكدار الشهوات وتنقى أوضار الذنوب ويعودون الى بلادهم أطهاراً قد استبدلوا بتلك النفوس نفوساً جديدة كأنها ما عرفت الاثم ، ولا قاربت المعاصي .

لذلك كان الحج أكبر أمنية يتمناها لنفسه المسلم ، ويتمناها له إخوانه وأصدقاؤه ، فهم إذا دعوا له دعوة صالحة دعوا له بالحج ، وان شكروا له يداً أو معروفاً قالوا له ، إن شاء الله بحجك ، ويعبرون عن ذلك تعبيراً فيه معنى لا تعبر عنه الألفاظ الكثيرة ، اذ يقولون ، الله يطعمك إياها .

واذا كان أقصى ما يتمناه من يقدر العالم ، أو يكبر الكاتب ، أو يهوى

---

(١) كتبت هذه المقالة قبل أن أتشرف بالمجاورة في مكة (من سنة ١٩٦٣ إلى الآن) وقد كتبت بعد ذلك كتاباً عن الحج ـ عن أحكامه وحكمه ووصف أماكنه ـ أسأل الله تعالى أن يعين على إتمامه .

الحبيب ، أن يزور البيت الذي ولد فيه ، والعش الذي خرج منه ، والمواطن التي شهدت طفولته وصباه ، وكهولته وموته ، ويطأ الأرض التي وطئ ، وينشق الهواء الذي نشق . فكيف لا يتمنى المسلم أن يزور موطن الروح ، ومهوى القلب ، الأرض التي انبلج منها فجر الاسلام ، وأشرقت منها شمسه ، وعاش في ربوعها أعظم العظماء ، وسيد الأنبياء ، حبيب قلب كل مسلم ، ومن هو أعز عليه وأحب اليه من أمه وأبيه وولده وأهله ويدخل من باب السلام ويبصر البيت الحرام ، ويطوف بالكعبة والحطيم ويرى زمزم والمقام .

هنالك الفرحة الكبرى ، التي لا تعدلها أفراح الدنيا وهنالك اللقاء لا لقاء الحبيب بعد طول الهجران ، وهنالك الموكب النوراني الذي يمر من حول الكعبة ، موكب الطائفين ، من كل جنس ولون ، من بيض وسمر وسود وشقر ، وشيوخ وفتيان ، ورجال ونسوان ، من كل قطر من أقطار الأرض ، ينادون بكل لسان ، يدعون رباً واحداً يسألونه ، وهو الكريم لا يرد سائلاً ، ولا يضجره سؤال .

انكم لتعجبون إن رأيتم موكباً يمشي ساعات لايقف ولا ينقطع ، أو أبصرتم جيشاً يلبث أياماً وهو يمر لا يتريث ولا ينفد ، فاعجبوا ، واعجبوا أشد العجب من موكب بدأ يمشي من خمسة آلاف سنة ، من يوم بنى ابراهيم هذه البنية ، ولا يزال يمشي الى اليوم يطوف بهذه الغرفة القائمة في واد غير ذي زرع من بطن مكة ، المبنية بالحجارة السود ، الخالية من الصقل والتهذيب والزخارف والنقوش ، ومن نعم الله على الاسلام انها بقيت كما هي فلم تمتد اليها اليد بمثل الفن الذي أراقته العبقرية الاسلامية على الاموي وقبة الصخرة والحمراء وتاج محل[1] ، لأن كل بارع من الفن قد يوجد ما هو أبرع منه ، أما الفطرة الساذجة التي شيدت بها الكعبة فستظل أبداً نسيج وحدها ، في العظمة والخلود .

هذا الموكب الذي بدأ يمشي من خمسة آلاف سنة ولا يزال يمشي الى اليوم ، وسيقف كل جيش في الدنيا مهما بلغ من القوة والعديد ، وكل موكب بشري مهما

(١) تاج محل ، في أكرا قرب هلى ، أجمل بناء على ظهر الأرض ، بناه الامبراطور المسلم شاهجهان مدفنا لزوجته ممتاز محل .

حوى من الفخامة والعظم . ويظل هذا الموكب يمشي . يمشي ما بقي الزمان ماشياً على طريق الابد . يمشي في وقدة الشمس المتلظية في آب . ويمشي في قرة الشتاء في كانون . ويمشي في رأد الضحى . ويمشي في هدأة السحر . يمشي في الليل وفي النهار . يمشي في هناءة السلم . وفي غمرة الحرب . يمشي رغم النكبات والمصاعب والأهوال .

لم توقف سيره جيوش الصليبيين لما رمتنا بها أوربة . فجاءت كالسيل المنهمر . ولكنه سيل من نار مدمرة . وهلاك مبيد . ولا القرامطة لما ثاروا ثورة البركان يرمي بالحمم . وعاثوا في الأرض فساداً وتدميراً . وأدخلوا الموت الى الحرم الآمن . ولطخوا بدم الطائفين أرض المطاف . ولا المغول لما هبوا كما تهب الريح الصرصر العاتية . تدمر كل شيء . لا وليس في الوجود قوة بشريةتستطيع أن تقف موكب الخلود الذي يطوف أبداً حول الكعبة البيت الحرام .

يا أيها السامعون والسامعات انه ليس الخبر كالعيان . وأنا مهما أوتيت من البيان لا أستطيع أن أصف لكم ما يحس به الحاج عندما يقف على باب الحرم . ويرى الكعبة لأول مرة . فقولوا : آمين ! أسأل الله أن يكتب لمن يريد منكم ألا يموت حتى تكتحل عينه برؤية هذا المشهد . مشهد الكعبة . الكعبة التي تتوجهون اليها من الشام ومصر والمغرب والمشرق . وكل بلد على ظهر الأرض تتخيلونها بقلوبكم من وراء الجبال والصحارى والآكام البعاد . وكلما اقتربتم منها مرحلة شعرتم بازدياد الشوق . وغلبة الجهد .

تحسون كأنكم تدنون من الحبيب ودونه الحجب والأستار . فلا تزال ترفع لكم حجاباً بعد حجاب وستراً بعد ستر . حتى تروا طلعة الحبيب . وأين طلعته من طلعة الكعبة . قبلة الاسلام . ومهوى القلوب .

ها هي ذي الكعبة يا ناس . وهذا الحطيم وزمزم والمقام لقد صحت الرؤى وتحققت الأحلام . وهؤلاء المسلمون صفوفاً حولها وراءها صفوف . صفوف تمتد الى خارج الحرم الى وراء الحجاز . الى الدنيا كلها . فهذه مركز الدائرة وهذه سرة الأرض .

وهنا يلتقي المكان كله . فالمشرق هنا والمغرب والنائي من الأرض والداني . وهنا الشام ومصر والعراق والمغرب وفارس والمشرق والهند هنا وجاوة والأرض المسلمة كلها . وقد جاء أبناؤها من كل مكان ، كما تصب الجداول في النهر الأعظم تدور معه حتى تستقر معه في حضن البحر الرحيب ، يطوفون بالكعبة ثم يمضون الى حضن عرفات . فلا ترى الا بحراً يموج بالسفائن البيض ، بالخيام التي تبسم طهرا لعين الشمس .

قلت لكم انه ليس الوصف كالعيان . ولا يستطيع قلم ولا لسان أن يصف لكم هاتيك العواطف السماوية ، التي تملأ قلب المسلم انه يطوف بالكعبة ، فيخرج من حاضره وينسى دنياه ، ويرى أمامه هذا الموكب الطويل يمتد خلال الزمان . فيبصر الخلفاء تمشي معه ، والصالحين والعباد والأئمة ، ويرى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ، ويبصر رسول الله ﷺ فهو يمشي على أثره ، يدور من حيث دار ، ويضع شفتيه موضع شفتي محمد الحبيب على الحجر الأسود .

صدقوني أن كل لذات الدنيا ، بطعامها وشرابها ولباسها ومتع شهواتها ومناعم أموالها لا تبلغ ذرة من اللذة الروحية التي يشعر بها الحاج وهو يلثم الحجر الأسود . الذي لثمه محمد ومن قبله أبو الأنبياء ابراهيم ، صلى الله عليهم جميعاً .

فقولوا آمين ، أسأل الله أن لا يحرمكم هذه النعمة .

وعرفات ، إنها لن ترى عين البشر مشهداً آخر مثله ، هيهات ما في الدنيا ثان لهذا المشهد العظيم ، ولقد يجتمع في المعارض والألعاب الأولمبية واحتفالات التتويج في بلاد الغرب حشود من الناس وحشود ، ولكن شتان ما بين الفريقين ، أولئك جاؤوا للمتعة والفرجة والتجارة وحملوا معهم دنياهم ، وقصدوا بلداً زاخراً بأسباب اللذة والتسلية ، وهؤلاء خلوا دنياهم وراء ظهورهم ، ونزعوها عن أجسادهم ومن قلوبهم ، وقصدوا بلداً قفراً مجدباً ، صحراء ما فيها ظل ولا ماء لا يريدون الا وجه الله .

مشهد لو كان يجوز أن يشهده غير مسلم لاقترحت أن تجعله هيئة الأمم المتحدة عيدها الأكبر ، اذ هنا أعلنت حقوق الانسان ، لا كما أعلنت في الثورة الفرنسية ولا كميثاق الاطلنطي الذي كتب على الماء ، أعلنت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة ،

وطبقت حقيقة . يوم قام سيدنا محمد ﷺ في حجة الوداع ، فأعلن الحرية والمساواة وحرمة الدماء والمساكن ووصى بالنساء ، وقرر لهن من ذلك اليوم الاستقلال الشخصي والمالي ، مع أن أكثر قوانين الأرض المدنية لا تقر للمتزوجة في أموالها هذا الحق وكان هذا المشهد في كل سنة دليلاً قائماً يملأ عيون البشر وأسماعهم على أن ما قرره محمد قد طبق أكمل التطبيق .

مشهد يهدم الفروق كلها ، فروق الطبقات وفروق الالوان ، وفروق الأجناس ، الناس كلهم إخوة لا ميزة لأحد على أحد الا بالعمل الصالح ، واذا كان اللباس الرسمي في الحفلات والمواقف الرسمية ما تعرفون ، فاللباس الرسمي هنا قطعتان من قماش فقط ، لا خياطة ولا أناقة ولا زخرف ولا يفترق في هذا المقام أكبر ملك عن أصغر شحاد .

إنه مشهد عجيب ، إنه أُعجوبة الأُعاجيب .

عشرات وعشرات من آلاف الخيام ، تحتها أقوام من كل بقعة في الأرض . لا يجمعهم لون ولا لسان ولا بلد ولكنهم لا يقفون ساعة حتى يحس كلّ أنه أخ للآخر ، أعز عليه من أخيه لأمه وأبيه ، إخوان وحدتهم العقيدة ، ووحدتهم القبلة ، وربما عادى الأخ أخاه حقيقة إن لم يكن دينه من دينه . ومذهبه من مذهبه ، لأن أخوة الدين والمذهب أقوى من أخوة النسب .

إنهم يضجون بكل لغة ، يهتفون جميعاً ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك ، دعوتنا فجئنا من أقاصي الدنيا ، لم تمنعنا الجبال ولا القفار ولا البحار ، ولم يمسكنا حب الأهل والولد ، دعوتنا الى القرآن لا قراءة وترنيماً وتغييباً بل عملا وتطبيقاً ، فقلنا ، لبيك اللهم لبيك ، دعوتنا الى العزة والوحدة والصدق في القول والعمل ، فقلنا ، لبيك اللهم لبيك ، دعوتنا الى الجهاد جهاد النفس وجهاد الكافرين فقلنا ، لبيك اللهم لبيك .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك .

إن الحج هو الدورة التدريبية الكبرى ، التي تقوي الأجسام والأرواح ، التي

تربي الأجساد والقلوب ، التي تعد للحق جيشاً جنده متمرسون بالشدائد ، حمالون للمصاعب سامون بأرواحهم الى حيث لا تستطيع أن تبلغ مداه روح .

إن الحج عيش في تاريخ المجد في سيرة الرسول ، في سماء الايمان ، إنه النهر الذي يغسل أوضار الناس ، إنه الرئة التي تصفي الدم وترده أحمر نظيفاً مملوءاً بالصحة والحياة .

إنه المؤتمر الاسلامي الأكبر .

أسأل الله أن يكتبه لمن لم ينعم به منكم ، وأن يجعل لي ولمن حج معاداً اليه ، وأن يبارك لكم في عيدكم ، ويوفقكم فيه الى كل ما يرضيه .

يا أيها السامعون والسامعات ، حج مقبول وعيد سعيد والسلام عليكم .



عرفات

نشرت سنة ١٩٣٥

« وأذِّنْ في النّاس بالْحج يَأتوكَ رِجالاً وَعَلى كُلّ ضامِرٍ يَأتينَ مِنْ كُلّ فَج عَميق ، لِيَشْهَدوا مَنافعَ لَهُمْ . وَيَذْكروا اسْمَ اللهِ في أيّام مَعْلوماتٍ عَلى مارَزَقَهُم مِنْ بَهيمَةِ الأنْعام . فكُلوا منْها وأطْعموا الْبائس الْفقير . ثمّ ليقْضوا تفثهُمْ . ولْيوفُوا نُذورَهمْ . وليطّوفوا بالْبيْت العتيق » .

هنالك ينكشف الغطاء ، وتنفتح أبواب السماء ، فيتوجه الحجاج الى الله بقلوب انزاحت عنها ظلمة الشهوات والأهواء ، وأشرقت عليها الأنوار ، فَسَمَتْ حتى رأت الأرض ومن عليها ذرة صغيرة ، تحملها رياح القدرة ، ثم سمت حتى سمعت تسبيح الملائكة بألسنة الطاعة ، ثم سمت حتى تدبرت القرآن غضاً غريضاً ، كأنما نزل به الوحي أمس ، وسمعت النداء من جانب القدس : « يأيُها النّاسُ إنا خَلَقْناكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأنْثى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتْقَاكُمْ » فأجابت : لبيك اللهم لبيك ! فرددت بطاح عرفات ، وأرجاء الحرم ، ورددت السموات والأرض : لبيك اللهم لبيك ! هنالك تتنفس الانسانية التي خنقها البارود ، وعلامات الحدود ، وسيد ومسود ، وعبد ومعبود ، وتحيا في عرفات حيث لا كبير ولا صغير ، ولا عظيم ولا حقير ، ولا مأمورولا أمير ، ولا غني ولا فقير .

هنالك تتحقق المثل العليا التي لم يعرفها الغرب ، إلا في أدمغة الفلاسفة وبطون الأسفار ، فتزول الشرور ، وترتفع الأحقاد ، وتعم المساواة ، ويسود السلام ، ويجتمع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في صعيد واحد ، لباسهم واحد ، يتوجهون الى رب واحد ، ويدينون بدين واحد ، ويصيحون بلسان واحد : لبيك اللهم لبيك !

هنالك تظهر المعجزة الباقية فتطوى الأرض ، ثم تؤخذ من أطرافها ، حتى توضع كلها في عرفات فتلتقي شُطْآنُ إفريقية ، بسواحل آسية ، ومدن أوربة بأكواخ السودان ، ونهر الكنج بنهر النيل ، وجبال طوروس بجبال البلور ، فيعرف المسلم أن وطنه أوسع من أن تحده على الأرض جبال أو بحار ، أو تمزقه على المصور ألوان فوق ألوان ، أو تفرقه في السياسة خرق تتميز من خرق ، وأعلام تختلف عن أعلام .

ذلك لأن وطن المسلم في القرآن ، لا في التراب والأحجار ، ولا في البحيرات والأنهار ، ولا في الجبال والبحار ، « إنما المؤمنون إخوة » ماقال « إنما العرب » ولا « إنما الأتراك » ولا « إنما الأكراد »

هنالك يتفقد الإخوة إخوتهم ، فيعين القوي الضعيف ، ويعطي الغني الفقير ، ويساعد العزيز الذليل ، فلا ينصرفون من الحج إلا وهم أقوياء أغنياء أعزاء .

هنالك يذكر المسلم كيف مرّ سيد العالم ﷺ بهذه البطاح ، مهاجراً الى الله ، تاركاً قريته التي نشأ فيها ، وقومه الذين رُبيَ بينهم ، وكيف جاء حتى وقف على (الحزْورة) فنظر الى مكة وقال : « إنكِ لأحب بلاد الله إلى الله وإنك لأحب بلاد الله إليّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ماخرجت » ثم يستقبل هذه الصحراء الهائلة ، ليس معه إلا الصديق الأعظم ، يتلفت كلما سار ، ليتزود بنظرة من مكة ، حتى غابت وراء الأفق الفسيح ، فانطلقا يؤمان الغار .

هل علمت هذه البطاح أن هذا الرجل الفرد ، الذي قام وحده في وجه العالم كله ، يصرع باطله بقوة الحق ، ويبدد جهالته بنور الاسلام ، ويهدي ضلالته بهدي القرآن ، والذي فر من مكة مستخفياً ، سيعود إليها بعشرة آلاف من الأبطال المغاوير ، فتفتح له مكة أبوابها ، وتتهاوى عند قدميه أصنامها ، ثم تعنو له الجزيرة ، ثم يخضع لدينه نصف المعمور ؟

هل علمت هذه البطاح أن هؤلاء النفر الذين مروا بها هاربين من جبروت قريش وسلطانها ، سيعزّون حتى تدين لهم قريش ، ثم يعزّون حتى يرثوا كسرى وقيصر في أرضيهما ، ثم يعزون حتى يرثوا الأرض ومن عليها ، وسيكثرون حتى

يبلغوا خمسمئة مليون ، وسيتفرقون في الأرض داعين مجاهدين فاتحين ، ثم يجتمعون في عرفات حاجّين منيبين ملبين : لبيك اللهم لبيك !

هنالك وقف سيد العالم ﷺ في حجة الوداع يعلن حقوق الإنسان ، ويقرر مبادئ السلام ، وينشر الأخوة والعدالة والمساواة بين الناس قبل أن تنشرها فرنسا بألف عام !

أيها الناس :

اسمعوا مني أبين لكم . فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس :

إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ؟

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس :

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على أعجمي الا بالتقوى .

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

وهنالك وقف يعلن انتهاء الرسالة الكبرى التي بعثه الله بها إلى الناس كافة ، ويتلو قوله جلّ وعز :

« اليَومَ أكْمَلْتُ لكُمْ دِينَكُمْ وَأتْمَمْتُ عَليْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لكُمُ الإسْلامَ دِيناً » ويبعث صحابته ليحملوا هذه الرسالة الى آخر الأرض ، ثم يحملوها إلى آخر الزمان .

فحملوها فأنشؤوا بها هذه الحضارة التي استظل بظلها الشرق ، ويستظل بظلها الغرب .

* * *

في عرفات تتجلى عظمة الاسلام ، دين الحرية والمساواة والعلم والحضارة ؛ ومن عرفات يسمع المسلمون داعي الله يدعو ؛ حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! فيجيبون ، لبيك اللهم لبيك ! وينطلقون ليعملوا للآخرة كأنهم يموتون غداً ، ويعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبداً .

* * *

ألا فلتفسد الأرض ، ولتَطغَ الشرور ، وليعصف الحديد ، ولينفجر البارود ، ولتَغُص الانسانية في حمأة الرذيلة الى العنق ، فإنه لا خوف على الفضيلة ولا على الحق ولا على السلام ، مادام في الأرض « عرفات » ، وما دام في الجو هذا الصوت القدسي المجلجل ؛ « لبيك اللهم لبيك » !



في ساحة الإعدام

نشرت سنة ١٩٣٥

سيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، هذه وحشية ، هذه همجية ، هذا لا يكون في القرن العشرين ، قرن الحرية والنور ، هذا يأباه فلاسفة العالم المتمدن ، المسيو فلان ، والمستر علان ، والهر جرمان ، والسنيور ايطاليان .

ويقول الحق ، هذا واجب ، هذا حسن ، هذا دواء القرن العشرين ، قرن الاستعمار والاستعباد وإبادة الضعفاء ، واغتصاب الحريات ، هذا ما أمر به الله ، وجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلينظر امرؤ مسلم ، أيتبع أمر الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم يتبع رأي المسيووات والمساتير ، والهررة ، والسنانير ؟ !

سمعت ـ وأنا في مكة ـ أن أمراً سيقع بعد صلاة الجمعة (آخر المحرم سنة ١٣٥٤) فجعلت أراقب وأنتظر ، لا أحب أن أسأل أحداً كيْلا تفوتني لذة المفاجأة وروعة الحادث . ثم إن الرجل في الحرم كالسائح في أرض الله ، لا يدري من يسأل ، ولا يعرف من يخاطب ، وبينا هو في « الهند » يسمع لغة الهنود ويرى أزياء الهنود ويبصر عادات الهنود ، إذ به ينتقل بعد خطوات إلى « نجد » فاذا هو بين النجديين ، واذا كل شيء حوله عربي نجدي ، ثم يخطو فاذا هو في « مصر » بين المصريين ، يسمع حديث المصريين في لهجة مصر . فكأن الدنيا كلها قد استقرت في الحرم ، تستظلّ بالبيت العتيق ، وتطوف به ، وتجثو خاشعة من حوله ، فلا يحس الرجل وهو فيه بأن وراءه دنيا ، أو ظاهر جدرانه حياً من الناس ، أو عامراً من الأرض .

حتى إذا قضيت الصلاة ، وانفتل الإمام ، ابتدر الناس أبواب الحرم يستبقون الى شارع الحكومة ـ وهو في أسفل (أجياد) يمتد من شمال (الصفا) حتى يجاور (باب ابراهيم) ـ فلم تكن إلا هُنَيْات حتى امتلأ الشارع على سعته بالناس ، ولم يبق فيه

موطئ قدم، فجعلت أزاحم الناس لأخلص الى الساحة، فلا أتقدم خطوة ومن لي باختراق هذا السد الهائل من الأجساد واجتياز هذا الخضمّ من الناس؟ فأيست واحتسبت مصيبتي في فوت المشهد عند الله، وهممت بالعودة الى الحرم وإذا أنا بالشيخ يوسف ياسين فتعلقت به وقلت:

- والله لا أدعك حتى تبلغ بي الساحة.

فاعتذر وتملص، فما نجا ولا تخلص، وكيف يتملص مني وقد كنت كالغريق وجد سفينة النجاة، أفيدعها بعدما وجدها؟ فأجاب على كرهٍ وسار وأنا أتبعه، والبحر ينشق له كأن بيده عصا موسى... وما للناس لا يتفرقون من بين يديه حذرين خائفين وهو سكرتير الملك؟ حتى إذا بلغ بي درج القصر عاد لشأنه وتركني، فصعدت فلم أجد مكاناً أقف فيه، ووجدت الغرف كلها ملأى بالموظفين والمقربين والحاشية فقادوني الى غرفة فخمة أعدت للأمير فيصل ابن الملك ونائبه على الحجاز، ولأهل البيت: بيت الملك.

* * *

وقفت في النافذة بين فتية من آل البيت، فيهم ابن للأمير فيصل في نحو الثانية عشرة من العمر[1]، ما رأيت في لداته أثقب منه ذهناً، ولا أصحّ جواباً، ولا أحد ذكاءً، وأطللت على الناس، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزيّ، فمن رجل على رأسه عقال أسود على صماد أحمر، قد التحف بعباية رقيقة، على ثوب أبيض، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من العثنون، وهلالاً دقيقاً من تحتها، نما فيه صف واحد من الشعر، كأنما هو مروحة تدلت على صدره، سنّة يتبعونها ما ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا هو النجدي.

ومن رجل يلبس ثوباً رقيقاً، فوقه رداء قصير (جاكيته) من قماش هفهاف، وعلى رأسه قلنسية (طاقية) بيضاء، إذا مشى في الشمس تعمّم عليها بملحفة بثقل

(١) هو الأمير عبد الله وزير الداخلية السعودية.

الفراش يتقي بها شمس مكة الحادة المخيفة . وهو حليق اللحية صغير الشاربين . . . وهذا هو الحجازي .

ومن رجل وسخ الثياب ممزقها . لا تدري عن ثيابه مالونها وماهي . وعلى رأسه حبل قد وضعه مكان العقال . وهذا هو الأعرابي .

ومن رجل يلبس ثوباً متقن الصنع عليه عباءة جميلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب . أو يلبس بدل الثوب حلّة (بدلة) بيضاء وهو حليق اللحية إلا قليلاً منها . يبقيه بمثابة الدلالة على أنه ملتح . . . وهذا هو السوري . وأكثر السوريين في الحجاز موظفون في الوظائف الفنية . وأقلهم تجار .

ومن رجل على رأسه عمامة ضخمة . كعمائم السلاطين من آل عثمان ـ يوم كان لآل عثمان سلاطين . وكان لسلاطينهم عمائم ـ وقد أرخى بين كتفيه عذبة طويلة . وله لحية كثة مستديرة وشاْربان طويلان . أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض . تبلغ الكعبين . . . وهذا هو الهندي .

ومن شاب حليق الوجه كله (على الأسلوب الامريكاني) نظيف الثياب . مهفهف قد ائتزر بمئزر (فوطة) لفها على خصره النحيل لفاً محكماً . واجتزأ بها عن السراويلات . وارتدى عليها رداء قصيراً رقيقاً . وربما بلغ ثمن المئزر من هذه المآزر خمسة من الجنيهات أو أكثر . . . وهذا هو الطالب الجاوي . وما أكثر هؤلاء الطلاب في مكة .

ومن عبد أسود . جعد الشعر . أفطس الأنف . ضخم الشفة . عارٍ إلا من خرقة تستر عورته أو بعض عورته . وهذا هو الإفريقي الأسود .

ومن . . . ومن أمم ربنا التي لا تعدّ ولا تحصى .

وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم . ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التي قطعوا السباسب . وخاضوا البحار ليواجهوها . ويتعلقوا بأستارها . وأكرم بها من جامعة !

ثم أقبل الجند ، وهم بثياب عربية ، قد تمنطقوا عليها بمناطق الرصاص ، فاصطفوا من حول الساحة ، ثم أقبل الأمير فيصل في موكبه ، يحف به طائفة من عبيده الأمناء الأشداء الأوفياء ، فصعد إلى الغرفة التي نحن فيها فجلس في شرفتها الكبرى .

ثم جيء بالرجل ، وهو قصير كزّ ساهم ، ما عليه إلا قميص واحد مشقوق الجيب ، وكان أصفر قد دمع وامتقع لونه ، وغاض من وجهه الدم ، مجموعة يداه الى قفاه ، قد مات من قبل الممات ، يقوده جندي آخذاً بتلابيبه ، حتى إذا بلغ به الساحة خلّاه ، فهوى جاثياً على ركبتيه ، فلبث لحظة ، يفتح عينيه من الجزع ، ثم ارتدت إليه نفسه بعد حين ، فجعل يقلّب عينيه في الناس ، فيرى كل شيء من حوله ميتاً لا حياة فيه ، فكأن الدنيا قد أظلمت في ناظريه حين يئس من الحياة ، كبيت أطفئ فيه المصباح في ليل داج .

وجعل ينظر الى الشمس مشرقة ، والجند جائين وذاهبين ، يدلون بشاراتهم وسلاحهم ، والقصر قائماً يحمل سطوة الحكومة وهيبة السلطان . . . ولكنه لا يبصر في ذلك كله إلا صوراً مطموسة تطلع عليه من خلال حلم عميق . . ثم تضاءلت هذه الصور واختلطت ، ولم يبق قيد ناظريه إلا الكعبة ، يبصرها من باب الحرم ، فجعل يحرك شفتيه بالتوبة والاستغفار ، ويشير بسبابته اشارة التوحيد ، ثم أغمض عينيه وجرفه سيل من العواطف المتباينة فغاب في ذهول عميق ولم يعد يفكر في شيء .

وجيء بالمجرم الآخر وهو عبد أسود ضخم الجثة ، غليظ الشفتين ، كثير الشعر ، كأنه غول هائل ، أو وحش مروع ، وقد قيده الجند ، وجمعوا يديه الى عنقه ، وأقبلوا يمسك به ستة منهم ، وهو يصاولهم ويقاومهم ، ويزمجر ويصرخ صراخاً شديداً ، وهم يزبُرونه ويقرّعونه ، حتى انتهوا به الى الساحة ، فاجتمعوا عليه فأضجعوه على سرير من الخشب ، وشدوه إليه شداً وثيقاً ، وأقاموه بحيث يرى رفيقه ويبصر مقتله .

وكأن العبد قد جزع وأدركه الخوف والخور ، فسكت وسكت الناس ، وعلقوا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم ، وجعلت أطلّ من الشباك أبحث عن الجلّاد فلا أرى

أحداً . وأفتش عمن يتلو حكم الإعدام فلا أجده . وأرى سمو الأمير يشير بيده ، فإذا عبد ضخم يبرز من بين الصفوف ، وبيده سيف صقيل مسلول ، فيأتي الأعرابي من ورائه وينخسه بالسيف ، فينتبه ويمد عنقه مستطلعاً ، فيهوي العبد بالسيف على قذاله ، ثم يحز به الرأس حزاً ، فلا تمضي ثوان إلا والرأس قد بُتر عن الجسد ، من القذال الى أعلى الصدر ، وطاح ثلاثة أمتار قبل أن تندّ من المقتول صرخة ونفر الدم من عنقه ، كأنه نافورة ، ومال الجسد قليلاً قليلاً حتى هوى ، وهويت أنا قبل هُوِيّه ، وكفّاي على عيني ولم أعد أشعر بشيء .

ولما صحوت قيل قد فاتك المشهد الهائل .

قطعت يد العبد ورجله من خلاف .

قلت : ويحكم ، ماذا تقولون ؟

قالوا : قطعت يده ورجله ، ألم تتلُ قول الله عز وجل : « إنما جَزَاءُ الذين يُحارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في الأرْض فَسَاداً أنْ يُقَتَّلوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّع أيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أوْ يُنْفَوْا مِنَ الأرْضِ » أما إنه لولا هذا ما بلغتم أرض الحجاز سالمين ، وما العهد السابق ببعيد . أفلا نستحيي بقتل واحد أو اثنين الناس جميعاً ؟ قلت : بلى والله ، صدق الله العظيم : « وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ » .

* * *

الشَّرِيفُ عَدْنَانْ

نشرت سنة ١٩٢٥

كنا في « أوتيل مكة المكرمة » ذلك القصر الفخم ، الذي كان للشريف عدنان حمىً منيعاً ، وحصناً حصيناً ، يهاب الجبابرة الدنوّ من بابه ، وتخشى الطير التحليق في سمائه ويتجنب الناس النظر اليه إلا نظر الخائف الحذر ، لأنهم يعلمون أن الكلمة متى خرجت من فم صاحبه كانت كسهم القضاء ، من أصابت أصمت ، وأنه ليس بين أحدهم وبين أن يقتل أو يدفن حياً في جب القصر المظلم ، أو تنهب أمواله ، أو يحرق داره ، إلا أن يشي به الى الشريف واشٍ ، أو تصيبه عرضاً نقمة من نقماته ! وكنا في الردهة الكبرى التي بناها فأجاد بنيانها ، وزخرفها فبالغ في زخرفتها حتى كانت تحفة من التحف ، وآية من آيات العمران ، نعجب من تصاريف القدر ، وأحداث الزمان كيف ذهب الملك ، واندثر السلطان ، وغدا الشريف الجبار ، الذي كان يتبختر في ثياب الوشي ، وأردية الديباج وتمشي أمامه العبيد بالسيوف والخدم بالمجامر ، ويسير وراءه الوجهاء والأعيان ، كيف غدا بعد هذا الجمال الناضر عظاماً نخرة ، في حفرة مقفرة ، وكيف استبدل بالقصر الكبير ، هذا القبر الحقير ، وكيف ذهب المال والولد ، والخدم والعبيد ، والحجاب والأعوان ، والأعداء والإخوان ، ومات الحب والبغض ، والخوف والرجاء ، حتى لكأنما لم يمر على الدنيا عدنان ، وكأنما لم يكن يوماً سيد مكة وجبارها ، وكيف ورثنا القصر أياماً وليالي نطؤه مطمئنين ، وننام فيه آمنين ، ونأمر فيه مطاعين ، لا نذكر صاحبه وبانيه ، ولا نقيم له وزناً ، ولا نحسب له حساباً ! كنا جالسين مع إخواننا رجال الوفد السوري ، نتحدث أن لا بقاء للانسان وأن لا خلود في الدنيا ، وأن الأيام دول والدهر دولاب ، فكم من عزيز قد ذل ، ومن

ذليل قد عز ، ومن ملوك كانوا أعز من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم ، فلا يغترن أحد بالدنيا ،

فما الدنيا بباقية لحي وما حي على الدنيا بباقي

ولا يدخرن وسعاً في كسب الذكر للدنيا والأجر للآخرة . فما الحياة إلا حياة التاريخ ،بل حياة الجنة .

وكان خادم الأوتيل قد جاءني بأعداد « الرسالة » ، فأقبلت أصفحها وأقرأ من كل مقالة عنوانها ، فرابني منها خبر هائل تصدع لهوله القلوب قلوب المؤمنين حزناً وألماً ، وتندى له الجباه حياء وخجلاً ، وتكل عن وصفه الألسنة دهشة وتفظعاً .

❊ ❊ ❊

ذلك أن تلك الجمهورية ، لم يشف غيظ قلوبها ، كل ما صنعته بالإسلام ، وما أنزلته بأهله ، فعمدت الى بيت من بيوت الله ، تقام به شعائر الله فجعلته بيتاً للأصنام ، ومثابة للوثنية . أماتت فيه التوحيد ، وأحيت فيه الشرك وطمست منه آي القرآن ، وأظهرت فيه الصور والأوثان . لم تضق بها الأرض حتى ما تجد مكاناً لمتحفها هذا إلا المسجد الجامع ، ولكن النفوس الملحدة ضاقت بهذا المسجد ، وأحسّ أصحابها كأن هذه المآذن في عيونهم ، وكأن هذه القبة على ظهورهم ، وعشيت أبصارهم من نور الله ، فأرادوا ليطفئوه بأفواههم ، ويمنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فعطلت الصلاة في أيا صوفيا فلا تقام فيها صلاة بعد اليوم ، وسكت المؤذن فلا يدعو في مآذنها الى الله ، ولا يصدع بالتهليل والتكبير ، ونأى عنها المؤمنون فلا يدخلونها إلا مستعبرين باكين ، يندبون فيها مجد الاسلام ، وعظمة الخلافة وجلالة السلطان ، وذل فيها المسلمون وصاروا غرباء عنها ، وهم أصحابها وأهلوها ، وعز فيها المشركون ، وشعروا أن أيا صوفيا قد ختمت فيها صفحة الاسلام ، باسم « أتا تورك » كما فتحت باسم « محمد الفاتح » !

أيا صوفيا التي صيح في مآذنها خمسين وثلاثمائة مرة واثنتين وسبعين وثمانمائة ألف مرة (٨٧٢٣٥٠) حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ... فاصطف فيها المسلمون خاشعة أبصارهم ، مؤمنة قلوبهم ، ساكنة جوارحهم ،

قد وضعوا الدنيا تحت أقدامهم ودَبْرَ آذانهم ، وأقبلوا على الله بخشوع واخلاص ، فجزاهم بما خشعوا وأخلصوا ، قلوباً استنارت بالإيمان ، وعمرت باليقين ، وكان القلب منها وهو يخفق بين جوانح صاحبه ، أكبر من الأرض وهي تجري في ملكوت الله ... فملكوا بهذه القلوب الأرض وفتحوا بها العالم !

أيا صوفيا التي بات فيها المسلمون سبعين وأربعمائة ليلة وأربعاً وسبعين ومائة ألف ليلة (١٧٤٤٧٠) ولهم في جوفها دويّ بالتسبيح والتكبير والتهليل كدوي النحل ، وما في أرضها شبر لم يكن موطئ قدم مصل ، أو مجلس قارئ ، أو مقام ذاكر ، أو مقعد مدرس أو سامع . ولم يكن يحصي إلا الله ، كم ختم فيها من ختمة ، وكم ألقي فيها من درس ، وكم ذكر فيها الله ، وكم أقيمت فيها الصلاة !

أيا صوفيا ، التي يشهد كل حجر فيها ، وتشهد أرضها وسماؤها ، وتشهد قبتها المشمخرة ، وتشهد مآذنها السامقة ويشهد الناس ، ويشهد الله وملائكته ، أنها بيت من بيوت الله ، وحصن من حصون التوحيد ، ودار من دور العبادة .

أيا صوفيا ، تعود للجِبْت والطاغوت ، وتحمل الصور والأصنام ، ويخسرها الإسلام والشرق ، ليربحها الكفر والغرب ؟ لقد أريقت حول أيا صوفيا دماء ذكية ، وزهقت في سبيل أيا صوفيا أرواح طاهرة ، من لدُنْ معاوية الى عهد الفاتح ، الى عهد عبد الحميد . أفراحت الدماء هدراً ؟ وذهبت النفوس ضياعاً ؟ وعادت بعد سبع وثمانين وأربعمائة سنة وكأنما لم يذكر فيها الله ، ولم يتل فيها القرآن ، ولم تقم فيها الأئمة ، ولم تتجاوب مآذنها بالأذان ؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم ، وسقوه بدمائهم ، وحموه بسيوفهم ، ثم وقفوه على الاسلام ، أفيأتي في ذيل الزمان ، من يعبث بالوقف ، ويهزأ بالدماء ويلعب بالجماجم ثم لا يردعه رادع ، ولا يعظه واعظ ؟

ومن هم الأتراك لولا الاسلام ؟ على أي حسب يتكلون ، وبأي نسب يفخرون ، وبأي ماض يعتزون ، وبأي مجد يباهون ؟ أبمجد رعاة البقر في تركستان ، أم بمجد أرطغرل بك ، وقد جاء من مشرق الشمس بدوياً جافياً فقيراً لا يملك إلا أعنة ركائبه ، وطُنُب خيامه ، يفترش الغبراء ، ويلتحف السماء ، فصار أحفاده بالاسلام

سادة القارات الثلاث ؟ أفرأيت من ينطح برأسه الصخر ، ويشرب بفيه البحر ، ذاك هو التركي حين ينكر الإسلام ويسعى لإيذائه . إنه لا يحطم الصخر ، ولا يجفف البحر ، ولكن يمشي على رأسه الى القبر ، وإن الإسلام إلا يكن بالترك يكن بغيرهم ، ولكن الترك إلا يكونوا بالإسلام لا يكونوا والله بغيره أبداً ...

وعدنا نعتبر ونتحدث أن لا بقاء للانسان ، وأن لا خلود في الدنيا ، وأن الأيام دول والدهر دولاب ، فكم من عزيز قد ذل ، وكم من ذليل قد عز ، وكم من ملوك و « رؤساء جمهوريات » كانوا أعز من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم وأن « الشريف عدنان » مهما يكن جباراً قوياً ، فانه سيصبح ويصبح أعوانه ، رمماً بالية في حفر خالية ، وسيبقى الله وسينصر دينه ، ويؤيد حزبه ، « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

* * *

أيها « الشريف عدنان »[1] ! لا تغتر ، وقد ورثنا القصر وورثت القبر ، وهدمنا ما بنيت ، وبنينا ما هدمت ، وما هدمت إذ هدمت ، إلا مجدك في التاريخ ، وأجرك في الآخرة .



(١) المراد به هنا (أنا تورك) ولكن لجأنا الى التعريض يوم لم نستطع التصريح .

مِن دِمَشق إلى مكّة

وَصفٌ وَتاريخ لرحلة الوفد السوريّ إلى الحجاز

نشرت في ٨ / ٦ / ١٩٣٥

الآن وقد مر هذا الأسبوع الصاخب الذي نسيت فيه نفسي ، وعشت فيه متشعب الفؤاد ، مقسم اللب ، بين استقبال المتفضل بالزيارة ، ووداع الماثل للرحيل ، وإجابة السائل ، ومسامرة السامر ، ومحادثة الجليس ، والآن وقد قُوضت « أقواس النصر . . . » الخشبية ، التي كانت منصوبة من أول الحي إلى داري الصغيرة ، تدل الناس عليَّ ، وتسوقهم إليّ ، فيقبلون زرافاتٍ ووحدانا ، فيهم من أعرف ومن لا أعرف ، وفيهم الصديق والرفيق الذي لا أتهيب حديثه ، ولا أستثقل مجلسه ، وفيهم الرجل الكبير ، والوجيه المعروف ، والعالم الجليل الذي أستحيي أن أستقبله في هذه الدار التي تخلو من غرفة استقبال بالمعنى الصحيح ، وبهذا الوجه الخجول الحييّ ، وهذا اللسان الذي يجهل لغة المجاملة كلها ، ولا يحسن الجواب عليها ، وفيهم من لقيته وفيهم من شرفني بزيارته ، وسافر في الشمس إلى داري البعيدة ثم لم يجدني ، ولم أستطع أن ألبث في داري أستقبل الناس ، لأني موظف عليَّ أن أغدو على عملي ، ولأني أحتاج هذا العمل ، بعد أن قطعت عني الوزارة راتب الشهرين اللذين غبت فيهما « مأذوناً » ! وجمعت الى ما حملته من تعب الطريق ، ومشقة السفر ، وسوء الصحة ، عناء الدين ، والديْن مذ كان هَمٌّ في الليل وذل في النهار !

الآن بعد أن هُدمت هذه الأقواس ، التي لم يكن لها من معنى إلا عطف أهل الحي عليّ وعلى المشروع ، وسرورهم بأوبة الوفد ، وإلا فما نحن بالذين يستحقون هذا الاستقبال وما اكتشفنا أميركا ولا فتحنا الدردنيل . . . ولا صنعنا شيئاً إلا أننا عرَّضنا أنفسنا للمخاطر ، وكان في طاقتنا لو تمهلنا وفكرنا أن نتجنب أكثر هذه المخاطر !

وبعد أن أزيحت الستائر والبسط عن الأبواب والجدران ، وأطفئت الأنوار التي كانت ممتدة من باب الدار إلى أول الشارع ، ورفعت المقاعد التي كانت مصفوفة في الطريق ، مباحة للجالسين ، وانصرف شباب الأهازيج والعراضات ، فلا يصيحون ولا يهزجون ، ولا يستقبلون الزائرين ، ويودعون القافلين بالطبول والزمور ، والهتاف والصياح ويلعبون أمامه بالسيوف والأتراس ، يحركونها في أيديهم بمهارة تأخذ بالألباب وتثير الإعجاب ، لولا أنها سيوف لا تقطع ، ويوم الحرب لا تنفع ، وعن البلاد لا تدفع ، وسكت ذلك المذياع (الراديو) الذي أصم دويه الأسماع ، وذهب أولئك المنشدون الذين ملأت أصواتهم الفضاء ، ونزل أولئك الشباب الذين أرادوا أن يجعلوا حارتنا مثل (هايد بارك) في لندن ، أو سوق عكاظ في الجزيرة ، أو ساحة المربد في البصرة ، فلم ينقطعوا عن الخطابة ساعة واحدة . .

والآن وقد رجع كل شيء إلى حاله وسكنت العاصفة التي هبت إثر رجوعنا ، فلم تُبق إلا هذا المجد الذي تعودنا أن نبنيه في الهواء بالكلمات والعبارات ، والخطب والهتافات ، ويعيش يا . . . يعيش يعيش يعيش . . . وما إلى ذلك من ترهات !

الآن أجلس إلى مكتبي لأتذكر حوادث الرحلة فأعيد كتابتها ، بعد أن سرق « صاحبنا » دفتر مذكراتي ، فأنشر خلاصتها في ألف باء الغراء ، وأضع فيها كتاب « الصحراء » الذي سيصدر عما قريب إن شاء الله .

* * *

وإن من حق القراء أن يلوموني ، إن تأخرت بنشر هذه الفصول ، ولم أشرع بكتابتها مذ وصلت ، وقد طالما انتظروا أخبار هذه الرحلة « الغريبة » ، وطالما سمعوا عنها كثيراً من الإشاعات الباطلة والأخبار الكاذبة ، ومن أغرب هذه الإشاعات وأجرئها على الحق والفضيلة ، ما سمعوه من « بعضهم . . . » من أنني خطبت بين يدي الملك خطبة شتمت فيها السوريين وكفرتهم ، وقلت إنهم يعبدون القبور والأوثان ، في حين أن الخطبة كانت علمية ، موضوعها التوحيد والسلفية ، وكان كل ما قلته مما يتعلق بالشاميين هو أنهم كانوا ينفرون من السلفية ، ثم لما عرفوا أنها اتباع الكتاب والسنة ، اطمأنوا إليها ، وأنسوا بها ، أفمعنى هذا أن أهل الشام يعبدون القبور والأوثان ؟

وهل ألقيت الخطبة على ظلي في المرآة حتى لم يسمعها أحد ، أم ألقيتها على ملك وسمعها وزراؤه وحاشيته . وقدما قالوا : كذبة المنبر بلقاء مشهورة . أفهل أستطيع أن أنفي عني شتم السوريين وتكفيرهم . وأنا أعلم أن هذه الجريدة سيقرؤها الملك ويقرؤها حاشيته ، لو لم أكن براء من هذه التهمة ، بعيداً عن هذه الوصمة . ثم إنني شامي مثلهم ، أفهل يعقل أني أمزق ثوبي بيدي ، وأسب أهلي وبلدي ؟ ولو أني فعلت لما أنكرت ، لأني لا أخاف من الرأي العام ، ولأني أقوى على مهاجمته وحدي ، لو اعتقدت خطأه وصوابي ، ولكن ماهو ذنبي إذا سمع أناس الخطبة بعقول « الفاتح لما أغلق » على أني أذكر القراء ، إذا سمعوا خبراً من الأخبار ، أو رواية من الروايات بوصية علي رضي الله عنه لقاضيه ، حين قال له ، إذا جاءك أحد الخصمين مقلوع العين فلا تحكم له حتى يأتي الخصم الآخر فلعله مقلوع العينين !

وأرجوهم أن لا يحكموا على رجل حتى يسألوه عما بلغهم عنه . . .

* * *

أقول أن للقراء لومي والعتب علي ، ولكن الذي قعد بي عن الإسراع بنشر هذه الأخبار ، إنما هو الاستقبال وذيوله وحواشيه ، ولم أكن علم الله أريد شيئاً منه وكنت أحب أن أدخل داري هادئاً ، وأن أمشي إليها منفرداً وحيداً ، لا يحف بي موكب ولا يقام لي استقبال ، وجئت من أجل ذلك من طريق السكة وحدي ، لأخلو بأحلامي وأسمع إلى صوت قلبي . وإن لي من أحلامي وقلبي عالماً أراه أكبر من هذا العالم ، ولكن إخواننا وجيراننا ، أرادوا شيئاً فكان لهم ما أرادوا .

وبعد فإني سأحدث القراء منذ الغد حديث هذه الرحلة مفصلاً بيناً ، حتى يحسوا كأنما هم معنا ، وفي صحبتنا ، فالى الغد .

* * *

إلى أرض النبوة

« وصف وتاريخ لرحلة الوفد السوري الى الحجاز
ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البري للسيارات »

نشرت سنة ١٩٤٠

بوابة الله

حين تصل هذه المقالة الى الرسالة، يكون الركب الذي خرج من دمشق منذ أسبوعين يؤم الحجاز قد شارف المدينة ان شاء الله. وهو أول ركب من الزوار يسير على الطريق الذي كشفناه، وفيه قريب من ثلاثمائة رجل وامرأة. ووصوله سالماً الى المدينة (وذلك بفضل الله مؤكد) هو الثمرة الأولى لرحلتنا الكشفية التي رحلناها في ربيع سنة ١٩٣٥. ولقد خطر على بالي حين دُعيت اليها وضع كتاب عنها، فكنت أتأبط دفتري دائماً، فلا نسلك طريقاً، ولا نقطع وادياً، ولا نرى جبلًا، إلا كتبت اسمه وصفته، وطبيعة أرضه، ولا يمرّ عليّ قوم إلا وسألت عن أنسابهم وأحوالهم، ووصفت مساكنهم، وذكرت ما عرفت من عاداتهم، وسمعت من لغاتهم؛ ولا بتنا ليلة إلا ذكرت كيف حططنا الأحمال، وكيف نهضنا للارتحال؛ ولا أرى منظراً، أو أشهد مشهداً، إلا ذكرت أثره في نفسي، وما أثار فيها من عاطفة، أو هاج من ذكرى، على ضبط في الأرقام، وتحرّ في جمع الأخبار، وتوثق من صدق الراوي وخبرته، حتى إذا دنونا من المدينة وأوفى الكتاب على الكمال، وقارب النهاية، امتدت اليه يد لا يعلمها إلا الله، فذهبت به، فأيستُ منه وأهملته، وجعلت لا أكتب شيئاً، ولا

أدوّن خبراً . إلا ما كان من وصف طريق العودة فهو مكتوب عندي . وما كتبت من المقالات في مجلة الرسالة أو في غيرها . وعدت الى دمشق فانغمست في عملي . ثم ضرب الدهر ضرباته . فسافرت الى العراق أولاً وثانياً . وعملت سنة في لبنان أدرّس فيها . وحسبتني نسيت الرحلة ونسيها الناس . حتى كان هذا الشهر وحقق الله ما ذهبنا اليه . ورأت دمشق اليوم الموعود . فسافرَتْ أولُ قافلة من الزوار . وألح عليّ الاصدقاء . وأعادوا الطلب مني أن أنشر وصف تلك الرحلة . فأجبت مكرهاً ونفضت ذهني . فكتبت ما بقي عالقاً به . وجعلت غرضي أن أدوّن ما رأيت وما سمعت . وأسجل ما أحسست به وشعرت . من غير أن أعمد الى كتاب من كتب التاريخ أو رحلة من الرحلات . فآخذ منها الفصول والأخبار والأرقام . وأن أعرض على القارئ صورة من الحياة البدوية . إذا هي لم تكن محيطة شاملة . ولم تكن كافية وافية . فهي صحيحة ثابتة . ليست متخيلة ولا مبالغاً فيها . فإن أحسنت فلله الحمد . وإن أسأت فالذنب على من سرق (دفتري) عفا الله عنه وسامحه .

* * *

وبعد . فهذه رحلة كشفية سلخنا فيها شهرين اثنين وقطعنا فيها خمسة آلاف كيل في الصحراء ... وركبنا فيها من الأهوال . ورأينا من العذاب ما لو سردناه وفصّلناه لكان أشبه شيء بالأساطير .

ولم تكن هذه الرحلة للتسلية ولا النظر في عجائب المخلوقات وغرائب البلدان . ولا للكسب والتجارة . ولا لشيء مما يرحل أفراد الناس من أجله عادة . بل كانت لمصلحة عامة . وغاية اجتماعية . تعود على بلاد الشام وأرض الحجاز بالخيرات الجمة والفوائد الكثيرة . هي فتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة . يسهّل على الناس أمر الحج ويرغبهم في أدائه ويوفر عليهم صحتهم ومالهم . ولم تكن هذه الرحلة رحلة واحد يهتم به أهله وأصحابه . ولا جماعة يعنى بهم أقرباؤهم وذووهم . ولكنها رحلة وفد من وجوه الشاميين وسراتهم وتجارهم . وكان الشاميون جميعاً يتبعونهم بأفكارهم ويرافقونهم بقلوبهم وينتظرون البرقيات منهم ويتسقطون أخبارهم . فإذا انقطعت

أياماً انتشر القلق وساد الذعر وهاجت الجرائد، وأقبل الناس يسألون عن أبنائهم وإخوانهم ... فتهتم لذلك حكومة الشام ومملكة الحجاز، ثم لا ينقطع القلق ولا تسكن النفوس حتى يعرف خبر الوفد وتجيء منه برقية أو رسالة.

* * *

وكان أول عهدي بهذه الرحلة أن لقيني الشيخ ياسين الرواف المعتمد السابق للمملكة العربية السعودية في دمشق، فقال لي: لقد عزمنا على اختراق الصحراء الى المدينة، نكشف طريقاً بريّاً للزوار، فهل لك في مرافقتنا؟

قلت: نعم. ومضيت في سبيلي وأنا أراها أمنية من الأماني، وأعلم أن بضاعتنا إنما هي الكلام، وأن الوفد لن يسافر، والطريق لن يفتح، ولذلك قلت له نعم، وأجبته الى السفر. وهل كان يسعني أن أقول له غير ذاك؟ تصوّرْ بالله مسلماً يستقبل البيت خمس مرات كل يوم، ويحنّ إلى هاتيك المعاهد، ويرى زيارتها منيته ومبتغاه، وعربياً يحب الصحراء ويعرف أخبارها، ويحفظ آدابها، ثم يدعى الى قطع الصحراء وزيارة الحرم، هل يقول لا؟ هل يرفض الوقوف أمام الحجرة الشريفة، والقيام في الروضة، والصلاة حيال الكعبة، والشرب من زمزم، والسعي بين الصفا والمروة، وزيارة هاتيك البقاع المباركة التي ولد فيها الاسلام ودرج، وعاش فيها سيد العالم ﷺ، ويأبى أن يخالط العرب في أرضهم، ويعرفهم في ديارهم، ويرى عياناً ما كان يقرأ خبره في الكتب، ويعرف أخباره على السماع؟

ولقد كنت أعلم أن هذه الرحلة جراءة على الموت واقتحام للخطر، وهجوم على الصحراء الهائلة التي طالما ابتلعت من أمم وأبادت من جيوش، ولكن ذلك كله كان يرغّبني في الرحلة ويحببها إليّ، لما ركّب في طبعي من حب المغامرة والاقدام، ولأنها درس من دروس الحياة لا أجده كل يوم، هذا الدرس الذي من فصوله الصبر والجرأة والحزم والعزم والوحدة والنظام، يحتاج إليه كل شاب ينشأ في بلاد ليس فيها نظام عسكري كالبلاد الشامية [1]، وأن الشبان الذين ولدوا في الحرب العامة أو قبلها بقليل فقد فقدوا، لطول ما نشؤوا على النعم وتقلبوا في الترف، طرفاً من الرجولة، وغدوا،

(١) كتب هذا المقال سنة ١٩٤٠.

لما وجدوا من السلامة وفقدوا من المصاعب، يميلون إلى التطرّي والتأنث، ويخشون الخروج من المدن ويهابون الحياة في الريّف، حتى أن إخواننا من المعلمين إذا أمر أحدهم بالانتقال الى قرية من القرى فكأنما أمر بالانتقال الى جهنم. وما ذلك لسوء عيش القرى فليس في القرى إلا صحة الأجسام وصفاء النفوس وجلاء النظر وراحة الفكر، بل لأنه لا يجد في القرية (قهوة) أي ندياً فاسد الهواء مسدود الأبواب، يجتمع فيه مئتان أو ثلاثمئة على نفخ الدخان، وقرع النرد، وحديث كأتفه ما يكون من الحديث، ونكات كأثقل ما يكون من النكات. ولو أن الشباب ألفوا المغامرة وركوب الأهوال، لما كان من ذلك شيء.

ومرت أيام ثم لقيني الاستاذ الرواف كرة أخرى فقال لي: هلم فقد تقرر موعد السفر.

فسُقِط في يدي ووقعت بين مشكلتين: مشكلة الوعد، ومشكلة الوظيفة. فلا أنا أستطيع أن أضحي بوظيفتي ومنها معاشي ومعاش أسرتي، ولا أنا أستطيع أن أخلف وعدي. ولو أني وعدت غير الشيخ ياسين لهان الأمر، ولكن الرجل نجدي سلفي لايعرف من كلمة نعم إلا أنها وعد مبرم لا يحله إلا الموت. فاخترت الوفاء ولو خسرت الوظيفة، وقلت له: أنا حاضر.

ثم يسر الله فسمحت لي الوزارة بالسفر، وذهبت أعد الجواز. وجعلنا كلما أزمعنا السفر، وودعنا الأهل والأصحاب، عرضت لنا الموانع، فأخرتنا حتى ضجرنا واستحيينا من الناس لكثرة ما نعزم ثم نقعد، وكان أكثرنا قد أقلع عن حلق لحيته ليوفرها، ويجمع منها لحية كبيرة، لما ظنوه من أن الرجل هناك بلحيته، فكلما كان أطول لحية كان أعلى مقاماً... فكانوا يأسفون عليها ويضنون بها على الحلق، ويستحيون أن يواجهوا الناس بها، لأن هذا الزمان جعل المعروف من السنة منكراً يستحيا منه، والمنكر من البدعة معروفاً يفتخر به[1] ولبثنا على ذلك أياماً، ثم عزمنا العزمة الأخيرة، فبيّتنا ثقلنا في المرآب (الكاراج) حتى نغدو مسافرين. فلما حملناه ورآه أصحابنا وجيراننا، وجاؤوا يودعوننا الوداع السابع ونحن لا ندري أهو الوداع حقاً، أم سنقيم بعده أياما وليالي، أم لا نسافر أبداً.

---

(١) وحلق اللحية لا يجوز وأسأل الله أن يلهمني إعفاءها.

كنا في المرآب مع الفجر ، وجعلنا ننتظر حتى طلعت الشمس ، وكان الضحى ، وأذن الظهر ، وكان العصر ، فأيسنا وهممنا بالانصراف ولكن السيارات حضرت ، وتحقق الرحيل ، وكانت أربعاً من طراز (البويك) وواحدة من (الناش) . وقد رفعوا على السيارة الأولى علماً سعودياً ، وعلقوا في صدرها لوحة كتبوا فيها « الوفد السوري لاكتشاف طريق الحج البري » وسرنا وسار وراءنا المودعون في قطار من السيارات الكبيرة ماله آخر يعرف ، حتى لقد ظننت أنهم لم يدعوا في البلد سيارة إلا استاقوها ، واخترق الموكب المدينة مهللاً مكبراً تهتز له الأرض ...

ولم أكن قد أيقنت بالسفر إلا في تلك اللحظة . فلما تصورتني كيف أفارق أهلي وموطني ، وأطرح بنفسي في هذه الصحراء المخيفة ، استعبرت . وكنت أطلّ على بردى ، وهو يجري زاخراً فأتأمله ، فأجده أحلى في عيني مما كان ، وأحب إلى نفسي ، وعز عليّ أن أفارقه ، واستفاقت في ذهني مئات من الذكريات ، وكرُت عليَّ حياتي كلها كأنها (فلْم) أراه ، فأبصرت في كل بقعة من دمشق ، وكل طريق من طرقها قسماً من حياتي ... وهل حياة المرء إلا في قلوب أصدقائه ، ووجوه أصحابه ، وجوانب داره ، ومشاهد بلده ، فإذا فارق أهله ، وغادر بلده ، الى بلد لا يعرفه ، وأهل لا يألفهم ، فكأنما مات نصف ميتة . ومن أجل ذلك كانت الهجرة جهاداً في سبيل الله ، ذلك لأنها لون من ألوان الموت ، ولكن صاحبها ميت يعيش ليتألم ، والميت مات فاستراح .

واستغرقت في هذه الأفكار فما صحوت الا والموكب قد بلغ (بوابة الله) ووقف في ظاهر دمشق ، ولم يعد موكباً وإنما صار طوفاناً من البشر ، ولجّاً طامياً من الناس ، وكان من ثقله يزحف زحفاً ، ويكبر فيزلزل الأرض ، ويهتف فيشق عنان السماء ، فلما بلغ (البوابة) وقف للوداع ...

* * *

فرَّ من الموتِ وفي الموتِ وقع

تركنا الموكب ، وقد وقف في ظاهر دمشق ، حول (قبة العسالي) ، وقد ملأت وفود المودعين تلك الساحة على رحبها ، وقام الخطباء يخطبون ، وقمت أشكرهم باسم الراحلين وأودعهم ، وأشرح الغرض من هذه الرحلة . وكانت الشمس قد جنحت الى المغيب ، فزاد شحوبها الموقف رهبة وجلالاً ، وأقبل الناس علينا يودعوننا فلم تكن ترى إلاّ عناقاً أو تقبيلاً ، وإخلاصاً متجلياً ، وحباً وعطفاً ، فلم يبق في الناس من لم تسل عبراته ..

وإن أنس لا أنس مشهد حفيد لزكي آغا سكر[1] من وجوه الميدانيين ، ورفيقنا في سفرنا ، وقد تعلق به لا يريد فراقه ، ويبكي فيبكينا ، فما كان أبلغ من بكاء الطفل الحفيد ، الا بكاء الجد الشيخ ، وما تركه حتى انتزعوه منه انتزاعاً ، وإن صوته ليرن في آذاننا ينادي : جدي . جدي .

وغادرنا دمشق ، وكان الليل قد أسدل ستائره على الكون ، وما زلنا ننأى عن هذه الجموع الهاتفة لنا الداعية بالتوفيق والنجاح ، ونبتعد عن هذا الحشد ، حتى ابتلع صوته الليل وطواه سكونه ، وغاب سواد الجمع في سواده الشامل ، ولم يبق من حولنا الا السهول الفيح ..

وكان صمت بليغ ، فلم ينبس واحد منا ، واستسلمنا جميعاً الى عواطفنا وأحلامنا ، وقد هاجها موقف الوداع وأثارها هذا المستقبل المجهول الذي نقدم عليه ، وهذه الصحراء المرعبة التي نسعى اليها ، وهذه البقاع المقدسة التي نقصدها . وكنا نتلفت بين الفينة والفينة ، فنملأ العين بمرأى أضواء المهاجرين[2] ،وهي تسطع على

---

(١) وقد توفي رحمه الله .

(٢) الحي الدمشقي الذي يقوم على سفح قاسيون وفيه « الجادة الخامسة » ذات الجلال والجمال .

نفوسنا المظلمة كما تسطع النجوم الهادية في الليلة الداجية ، على الضال الحائر ولم نكن ندري ، أنعود اليها فنراها كرة أخرى ، أم ستأكلنا الصحراء فيكون ذلك آخر العهد بها ؟ وكنا نحدق فيها لننقش صورتها في نفوسنا ، حتى نأنس بها في ليالي البعاد . ونذكر فيها آخر آية من آيات دمشق (البلد الحبيب) .

وكانت السيارات تسير متعاقبة يكاد ينوء بها ثقل ما تحمل[1] وكانت تحمل فوق طعامنا والشراب الفرش والخيام ، والقدور والطباق ، ومائتي (صفحة) بنزين ، وعدداً هائلاً من آلات السيارة وأدواتها ، وراديو (رادّ) وغير ذلك مما نسيته الآن ، فكنا نعوّذها بالله ، ونرجو لها التوفيق ، وليس فينا من يتحدث أو يتكلم إلا قائلاً كلمة ، وسامعاً جواباً . ثم يرجع الصمت حتى طلعت علينا أضواء أذرعات (درعـا) قصبة حوران ...

❋ ❋ ❋

بلغنا أذرعات (درعـا) عقب العشاء . فلبثنا فيها ريثما نظروا في جواز سفرنا وريثما صلينا . وأذرعات اليوم بليدة جميلة ذات قسمين ؛ قسم جديد منظم بني على المحطة وقسم قديم ينأى عنه قليلاً . وفيها سوق كبيرة ، وأبنية جيدة ، وهي قديمة ذكرتها العرب في أشعارها لأنها ـ كما قال ياقوت ـ لم تزل من بلادها في الاسلام وقبله ، وأنشد لبعض الأعراب ؛

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ويجلو دجى الظـلماء ذكرتني نجـدا
وهيجتني من أذرعـات ومـا أرى بنجد على ذي حاجـة مدنف بعـدا

وذكرها امرؤ القيس ، وعد ياقوت جماعة من العلماء خرجوا منها ، وليس فيها الآن من العلماء أحد (فيما نعلم) يذكر . وعالم حوران وفقيهها اليوم الشيخ التقي الصالح الشيخ الطيبي الدمشقي وهو فوق التسعين ، وهو بقية السلف الصالح[2] . وفارقنا أذرعات نسير شرقاً الى بصرى بعدما هتفنا[3] بآل المقداد أعيان وجوهها ننبئهم

---

(١) هذا هو التعبير الصحيح وان كان عكسه هو الشائع .

(٢) توفي رحمه الله .

(٣) أي تكلمنا بالتلفون واسمه في الشام ، الهاتف ، وهو اسم معروف عند الخاصة والعامة .

بوصولنا فلم نبلغ نصف الطريق الى بصرى حتى رأينا أضواء كثيرة ومصابيح تجيء وتروح ، فعجبنا أن يكون في البرية مثلها ، ودنونا منها فاذا هي أضواء المستقبلين الكرام ، هجروا مضاجعهم وأقبلوا يتلقوننا من نصف الطريق . فحيونا ومشوا بين أيدينا يهزجون الأهازيج البدوية حتى بلغنا بصرى .

ولبصرى ذكر في التاريخ مستفيض ، ومجد مؤثل ، وفيها كثير من آثار الماضي ، ولم أكن قد دخلتها من قبل ، فما استطعت رؤيتها في الظلام ، ولم ألمح من آثارها الا صفين من الأعمدة الضخام ، قائمين عند مدخل البلد ، على طرفي الطريق الذي سلكناه الى منزل آل المقداد حيث رأينا الكرم الذي لا كرم بعده .

وبصرى مذكورة في الشعر قديماً وحديثاً ، ولكنهم لم يذكروها إلّا ليذكروا نجداً ، ويعلنوا شوقهم اليها ، وكأنهم لم يروا فيها ولا الغوطة ولا وادي بردى ما ينسيهم تلال نجد ورماله ، وذلك من حكمة الله فإنه لولا حب الوطن ما سكن البلد القفار !

فمن قولهم فيها :

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا رسالتنا لقيت من رفقة رُشدا
إذا ما وصلتم سالمين فبلغوا تحية من قد ظن ألّا يرى نجدا
وقولا له ليس الضلال أجازنا ولكننا جزنا لنلقاهم عمدا

ولبثنا فيها الى موهن من الليل[1] ثم خرجنا يصحبنا دليل من أهلها ليسير بنا الى (قريات الملح) القرية التابعة لابن سعود من غير أن نمر على المخفر الانجليزي في (الأزرق) لأننا لم نستأذن من القنصل الانكليزي لنمر على بلد من بلادنا ... وكان اسم الدليل الحاج نمر ، وقد زعموه خبيراً بالطرقات ، عارفاً بالأرض ، خرّيتاً حاذقاً .. فتوكلنا على الله ، ثم على هذا الدليل الحاذق !

* * *

(١) منتصف الليل .

سرنا الى الجنوب ، نخبط في ظلال الليل ، لا نتبع جادة مسلوكة ، ولا طريقاً واضحاً ، يقودنا الحاج نمر ، وياليت اسمه الحاج غراب ، فقد أضلنا ، كما (قد ضل من كانت الغربان تهديه) .. حتى بلغنا قرية كبيرة اسمها (أم الجمال) فيها بنيان كثير ، وأزقة وطرقات ، وفيها برج عال قديم ، ولكنها مهجورة منذ قرون .. ليس فيها ديّار ، ولا نافخ نار ، وهي موحشة في رأد الضحى فكيف بها في الليلة الظلماء ؟ فما كان من صاحبنا الحاج غراب إلا أن دير به[1] ، وغثت نفسه ، وجعل من الدوار والغثيان يقيء ، وفقد رشده ، فصبرنا عليه حتى أفاق فسألناه عن أمره فاذا هو لم يركب في عمره سيارة قط ، ولذلك دار رأسه ، فعالجناه حتى برئ ، فلما برئ رأى الطريق مختلطاً عليه ، فأمرنا بالوقوف في هذه البليدة الموحشة التي لا يسكنها الا الجن ... وذهب في سيارة يكشف لنا الطريق ، فانتظرناه الى الفجر فلم يرجع ، وكانت ليلة ما أذكر أني رأيت مثلها برداً ، ونحن في العراء فأحسست والله كأن عظامي ترتجف من البرد ، وبلغ منا النعاس وما نطيق أن ننام ، وأين وكيف ننام ؟

فلما طلع النهار ، وتعارفت الوجوه ، رأينا الحاج غراب على بعد خمسين متراً منا ، واذا المحترم ينتظر أن نأتي اليه ..

وأردناه على الاسراع قبل أن يبصرنا بعض أعوان المستر كلوب ، ملك البادية المسمى (أبو حنيك) لأن رصاصة كانت قد أصابت حنكه فتركت فيه أثراً .. وسألناه هل يعرف الطريق أم يخبط بنا خبط أعشى ، فعجب من سؤالنا وأكد لنا أنه يعرف البلاد كلها شبراً شبراً ، وأنه سلك هذه الطرق بعدد شعر رأسه ، فاطمأننا وسرنا معه وكانت الشمس قد طلعت ، وانقضت أول ليلة من ليالي الرحلة .

سرنا معه ، فصعد بنا جبلاً وعراً فيه أحجار وحفر ، فسرنا فيه ساعة كاملة وهو لا يزداد إلا وعورة ، قلنا له ، ويحك يا هذا ، الى أين تمشي بنا ؟ قال ، إن علينا أن نجاوز هذه الوعرة ، كي نبلغ (قريات الملح) من غير طريق (الأزرق) فقلت له ، ويحك ، هذا والله البلاء الأزرق والموت الأحمر ، وإنه ليوشك إذا أوغلنا في هذه الوعور ألا نخرج منها ، فعد بنا ولو الى الأزرق ، فماذا في الأزرق إلا الجزاء النقدي ؟

(١) أي أصابه الدوار (داخ) .

واختلفت الاراء وتجادل القوم . . ثم، اتفقوا على العودة فعاد بنا الدليل من حيث جاء ، حتى اذا هبطنا الجبل سار بنا في طريق معبدة فسرنا فيها ، ثم سرنا وهي لا تنتهي حتى كاد النهار يزول ، ثم وجدنا مركزاً من مراكز البترول فيه ضابط انكليزي ،فسألناه : إلى أين تؤدي هذه الطريق قال : إلى العراق ، وقد اقتربتم من الحدود !

فوثب أصحابنا على الدليل يوسعونه سباً وشتماً على أن طوّح بهم حتى كاد يهلكهم بجهله ، وهو صابر ساكت لا ينطق بحرف ، فتركه القو م وائتمروا بينهم ، فقال قائل منهم : إنني لأعرف طريقاً في الحرة[1] يصل بنا الى القريات ، وقد جزته فوجدته سهلا . فقالوا له : سر بنا اليه . فمال بهم ذات اليمين ، ثم دار دورة فاذا نحن في حرة من أصعب الحرار ، واسعة ممتدة الجوانب ، ملتوية مفروشة بحجارة سوداء لماعة ، كأنما قد صبَّ عليها الزيت ، حادة الجوانب كأنها كالسكاكين ، فلما بلغنا وسط الحرة رأينا الجادة متروكة مهملة قد تخربت وغطتها الحجارة ، فكنا ننزل من السيارة فنزيح الأحجار من طريقها لنمشي ، وكنا اذا بلغنا هضبة لم تقو السيارة على تسنمها نزلنا فربطنا السيارات بالحبال فجررناها بأكتافنا ، واحدة واحدة ، كما تجر الدابة الحرون ، واستمر بنا ذلك الى الغروب ، وامتدت بنا هذه الطريق تسعين كيلاً ، رأينا فيها الموت مما تعبنا ، ولم نقف الا ساعة أكلنا فيها وصلينا ، فلما أن غابت الشمس يسر الله لنا الخروج من هذه الحرة ، فلما خرجنا منها إذا نحن حيال قصر الأزرق ليس بيننا وبينه إلا أربعة أكيال أو أقل منها ، وكان الى يسارنا أدغال وعرة فيها نبت من نبت الصحراء ، فلم نجد بدأ من دخولها ، فدخلناها مكرهين تقوم بنا السيارة وتقعد وتميل وتعتدل حتى أظلم الليل ، وبلغنا قاعاً مستوياً فوقفنا وأنخنا للمبيت ، وكنا حين انتهينا الى الأزرق بعد هذا الأذى كله ، كالذي (فرَّ من الموت وفي الموت وقع) .

* * *

---

(١) الحرة أرض بركانية كلها صخور .

أول ليلة في البادية

والقاع في عرف البدو مستنقع ماء ، جف فكان بقعة مستوية كصفحة الكف أرضها من الطين المتماسك فيها شقوق ، وكان خالياً موحشاً ، فلما وقفت فيه السيارات وانطلق إخواننا الى الأحمال يضعونها عن السيارة ، الى الخيمة ينصبونها ، والى المصابيح (اللكس) ينيرونها ، والى النار يوقدونها ، والى البسط يمدونها . رأيت القاع قد استحال الى قرية عامرة ، أو الى ندي (قهوة) من أندية المصايف ، فهاهي ذي الخيمة منصوبة وهاهي ذي الأضواء معلقة وهاهو ذا الرادُ يصدح بالأغاني ، وهاهي ذي أكواب الشاي تدور على الجلوس .

وكان كل شيء نراه جميلاً ، يبعث الى النفس القوة والنشاط والرجولة ، إلا هذه الأغاني المخنثة الضعيفة التي كان يأتي بها المذياع ، فقمنا اليه فسددنا فمه .

وجلسنا نتحدث بما مرّ علينا في يومنا ، حتى نضج الطعام ، فتهافتنا عليه نأكل أكل من لم ير الزاد منذ أيام حتى تكشف قعر القصعة ، وكانت قصعة كبيرة يقعد فيها إنسان ، فابتعدنا عنها وما منا إلا من يشتهي الطعام ، وجعلنا نمسح أكفنا بالرمل والطين ، لا نستطيع أن نغسلها بما كان معنا من الماء ، خشية أن نقبل على مفازة فنهلك عطشاً ، ثم جلسنا للسمر والحديث ، تدور علينا أكواب القهوة المرّة والشاي ، فكانت ليلة من أجمل الليالي ، نسينا فيها كل ما قاسينا من تعب ، وما رأينا من عناء ، حتى إذا اكتهل الليل ، قمنا الى الخيمة فمددنا فيها ما كان معنا من بسط أو فرش ونمنا جميعاً ، لا نخاف اللصوص أن تسرق متاعنا ولا الوحوش أن تجر برجل أحدنا .

ولقد حسبتني سأنام الى الظهر لما كنت أحسّ من التعب والنعاس. وإذا بي أنهض من الفجر وينهض إخواننا جميعاً وليس في أجسامهم أثر من تعب الأمس. وإذا نوم ساعات في الصحراء، أجدى على الجسم من نوم الليل كله في المدينة. وليس في الدنيا أجمل من صباح البادية، ولا يعرف الفجر الا فيها، ولم نكن نعرف ذلك من قبل فكان لذلك الصباح أثر في نفوسنا لا يمحى، وبدأنا منذ تلك الساعة نحب الصحراء ونخشاها، بعد أن كنا نخشاها ولا نحبها.

وأسرعنا بالصلاة والطعام ثم سرنا قبل طلوع الشمس، يقودنا الحاج غراب حتى خرج بنا من هذه الأدغال الى أرض مستوية فسيحة. رأينا فيها أثراً جديداً لسيارات من السيارات الكبيرة، ذات الدولاب المزدوج، فعجبنا منه ولم ندر أي السيارات تمر من هناك، وعهدنا بهذه الأرض لاتطؤها سيارة. ورأينا هذا الأثر يمشي معنا ويدور من حولنا لا يفارقنا. فجعلنا نظن به الظنون، حتى طلع علينا أعرابيان من عرض البر. فأشرنا اليهما فأقبلا علينا، ومن مزايا الاعراب التي اضطرتهم اليها طبيعة أرضهم، أن الاعرابي يأتي اليك من مسافة كيل أو كيلين، اذا أنت أشرت اليه، لتسأله عن الطريق، أو تطلب منه حاجة. لا يغضب ولا يتأفف، ولا يسألك أجراً. فلما أقبلا، إذا أعرابيان بثياب رثة لايُدرى ماهي، يقودان جملاً هزيلاً فقلنا لهما:

ـ أين نحن؟

ـ قالا: على ماء الهزيم، وها هو ذا عند هذه الطلحة[1]

ـ قلنا: ومنذ كم أنتم هنا؟

ـ قالا: منذ الأمس

ـ قلنا: هل رأيتما سيارتين كبيرتين مرتا من هنا؟

ـ قالا: نعم: من سيارات (أبو حنيك) فيها عسكر يفتشون عن سيارات مرت على الأزرق ثم اختفت وقد سألونا عنها.

نظر بعضنا في وجوه بعض وابتسمنا.

---

(١) واحدة من شجر الطلح وهو شجر لا يثمر. والطلح أيضاً شجر الموز.

وأبو حنيك هذا هو المستر كلوب الانكليزي ، داهية مستعرب يسميه أتباعه بالصاحب (راعي البويضة) ويفدّونه سمي بأبي حنيك لأن رصاصة أصابت حنكه فتركت فيه أثراً بيّناً وهو ركن الاستعمار في هذه الديار .

ـ فقلنا لهما : وأنتما ما خطبكما ؟

ـ قالا : أضللنا بعيرين لنا فنحن في طلبهما منذ ثلاث .

فدعونا لهما وسرنا ، ونحن نحس أننا قد دخلنا الآن في جزيرة العرب ، حتى وصلنا ماء الهزيم ، فاذا الهزيم جبّ ماء منتن خبيث ، أنظف منه النهر الذي في آخر الشاغور .. فتركناه وسرنا .

على الحـدود

لم نجاوز غير بعيد حتى رأينا لوحة وأسلاكاً من هذه الأسلاك الشائكة ، فعلمنا أننا قد دخلنا في أراضي المملكة السعودية ، فاستبشرنا وشعرنا بالاطمئنان ، وذهبت علائم الكدر من وجوهنا ، وخالطنا سرور عجيب ، لا أدري أكان ذلك لأنا دخلنا في أراضي الحجاز ، فهاجنا الشوق الى هاتيك المعاهد ، أم لأننا وطئنا أرضاً لا يسيطر عليها أجنبي ولم تمتد اليها رذائل الحضارة الأوروبية ، فهي عربية مسلمة ، أم لأننا قد أصحرنا ودانينا الخطر ، فألف الخوف بين قلوبنا وشعرنا بزهو المخاطر وسروره من نفسه وشجاعته ، أم لأننا نجونا من (أبي حنيك) الذي يطاردنا .

ولم يكن حولنا إلا تلال من الرمل ، متتالية متعاقبة لا يكاد البصر يدرك آخرها ، توحي الى النفس بامتدادها وصمتها معنى من معاني الرهبة والجلال ، وجعلنا نتبع الأرض الصلبة كيلا تغوص السيارات في الرمل يقودنا الدليل ... حتى لمحنا على تل عال من هذه التلال شيئاً تأملناه فاذا هو خباء من أخبية البدو ، فاستأنسنا به ودنونا منه ، واذا مخفر من مخافر الحدود البدوية ، واذا فيه ثلاثة شبان من شبان نجد ، ما إن رأونا حتى هرعوا الينا يستقبلوننا من أسفل التل ويقودوننا الى الخباء ، وكانوا يلبسون الثياب العربية ، ويتمنطقون عليها بمناطق الرصاص ، ويتنكبون بنادق جديدة رأينا عليها كتابة فقرأناها فإذا هي : (وقف لله تعالى وقفه عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) فساروا ونحن نتبعهم حتى بلغنا الخباء في أعلى التل .

كان خباء من الشعر على مثال أخبية البدو، قد حفرت في وسطه حفرة أوقدت فيها النار، وصفت من حولها البسط والجلود، فأجلسونا على أكرمها وأحسنها، وقدموا لنا رحال الجمال لنتكئ عليها، وقاموا بين أيدينا يخدموننا فما تركوا شيئاً يستطيعون أن يفعلوه من الإكرام إلا فعلوه.

* * *

في المخفر السعودي

تركنا القراءُ في « المخفر السعودي » على الحدود وأشهد أني لم أذق طعم الأنس والاطمئنان منذ فارقت دمشق إلا في هذا المخفر، ومهما نسيت من المشاهد، وأضعت من الذكريات، فلن أنسى تلك الساعة، ولن تضيع من نفسي ذكراها، وإنني لأتخيلها الآن، وقد مر على تلك الزيارة خمس سنين[1]، ولم يبق في يدي منها الا ما علق بذهني .. أتخيل تلك الخيمة الشَّعرية الشَّعرية، الجاثمة على ذلك التل العالي، تطل على التلال التي لا يحصيها عد، وقد اتكأت فيها على جنبي، ونظرت الى أسفل مني فرأيت السلوك الشائكة، فعجبت منها. سلكة لا يعبأ بها تفرق الاخ عن أخيه، وتجعل الشعب شعبين، ثم مددت بصري حتى ضل في ثنايا السراب المتألق في وهج الظهيرة، ثم بلغ « دمشق » دار الاحبة ومثوى الأماني، فهزني الشوق اليها والفخر بها، والأسى عليها لما أصابها. ثم رجعت البصر الى البادية من حولي، فسرَتْ في روحي روحها، فشعرت كأن قد صهرتني شمسها، فغدوت كأولئك الذين خرجوا منها جِنّاً في النهار، ورهباناً في الليل، وموتاً للظالمين والمبطلين، وحياة للشعوب ورحمة للناس ... وتمنيت لو كان اليوم الى اليرموك أو القادسية طريق، حتى أسلكه كما سلكه أجدادي الأمجاد .. وهيهات أن يكون للشباب الذي أضاع روح الصحراء الى مثلها طريق.

* * *

وأكلنا من طعام الجند وهو الزبد والرز والتمر، وشربنا من ألبان النياق وما ألذه من شراب ... وتبادلنا أطيب الحديث فكان بشرهم وحديثهم قرى حلواً كتمرهم

(١) نشرت هذه المقالة سنة ١٩٤٠.

سائغاً كلبنهم . ثم سألونا عن الطريق الذي نسلكه فأشرنا الى الدليل : فحدثوه فوجدوه أجهل الناس بالبادية ووجدوه يضرب بنا على غير هدى ويسير على عشى . فأتموا صنيعهم معنا ، فبعثوا واحداً منهم يصحبنا الى (القريات) يرشدنا ويهدينا ، وكان هذا الواحد فتى حلواً جميلًا ، ولكنه على حلاوته وجماله أمضى من السيف الباتر ، وكان اسمه (سلامة) فتفاءلنا به خيراً . وكان ﷺ يتفاءل ، قلت : رافقتنا السلامة ان شاء الله ، والحاج غراب صامت لا ينطق .

* * *



وودعنا القوم الكرام وسرنا نخرق صدر البادية المهولة وأرواحنا معلقة بيد سلامة ، وسلامة يشير الى السائق ويلقي عليه أوامره : يمين ، شمال ، اصعد التل ، تجنب الرملة . والسائق يسمع ويطيع ، والسيارات تتغلغل بين هذه التلال ، ولبثنا على ذلك الى العصر ، عصر اليوم الثاني من أيام الرحلة ، فرأينا رملة بيضاء فسيحة لها منظر البحر في سعته وتموجه واستوائه ، تملأ العين جمالاً ، والقلب من خوف سلوكها فزعاً ، يلوح من ورائها سواد قليل كأنه النخيل أو خيال البنيان . فقال سلامة سلمه الله : « هذه هي القريات » .

والرمال التي رأيناها في البادية على نوعين : رمال منبسطة بيضاء دقيقة كالغبار ، لا طية بالأرض ، يتخللها نبات من نبات الصحراء (وسأصف فيما يأتي من الحديث أنواعاً منها خبرناها) ورمال حمراء حباتها أكبر ، وامتدادها أكثر ، وهي تلال يأخذ بعضها بأعقاب بعض ، وإذا أنت تأملتها وجدتها في حركة دائمة لا تستقر حباتها ، وبذلك ينتقل التل العظيم من مكان الى مكان ، في الشهر مرة أو الشهرين ، ولقد رأينا في عودتنا مناطق كانت سهلة مافيها حبة رمل ، فصارت بعدنا آكاماً من الرمال .

وهذه الرمال آفة السيارة ، وعلتها التي لا دواء لها ، فإنها للينها وتهافتها لا تثبت

تحت دواليب السيارة ، فتغوص فيها كما تغوص في الماء ، وتلبث فيها كأنما دفنت وهي في الحياة .

ولقد لقينا من هذه الرملة عناء تقل في وصفه مبالغات الشعراء . . . غرقت فيها السيارات ، ومالها لا تغرق وقد قلت لك إنها رملة كالبحر ، أفتمشي سيارة على وجه البحر ؟ ولقد لبثنا الى الليل نزيح الرمل من حول السيارة ، ونرفعها رفعاً ثم ندفعها بعواتقنا دفعاً ، ثم نجرها بالحبال ، حتى إذا قلنا سارت عادت فغاصت ، فلم نقطع الرملة حتى تقطعت أعمارنا ، ولم نخرج منها حتى شهدنا أنه لا إله إلا الله !

* * *

وقريات الملح قرى ست متقاربة أكبرها قرية (كاف) ولكنها لا تحوي على نصف سكان (حلبون) أبعد قرى الشام ولا تبلغها كبراً واتساعاً ، وهي في غور من الأرض ، وكان أول ما استقبلنا منها الحصن ، وهو حصن كبير من الحجر الأبيض المسنون ، علمت أن الأمير نواف بن النوري بن الشعلان هو الذي بناه أيام تسلطه على تلك الديار ، منذ خمس وعشرين سنة ، ولم أجد من أستزيده من خبره . . . والقريات اليوم إمارة ، وهي مقر الأمير ، ومما رأينا في الحكومة السعودية أنهم يسمون كل من يلي مدينة مهما صغرت أميراً ، لا فرق في ذلك بين أمير القريات ، هذه . . وبين أمير المدينة المنورة .

وكان الأمير يومئذ غائباً في مكة يشهد الموسم ، يقوم مقامه ابن أخ له ، وهذه البادرة فاشية في الحجاز ، إذا غاب الأمير أناب عنه ولداً له أو قريباً ، وكان نائب الأمير في قرية أخرى من القرى الست ، فلم نلقه ، ولكننا لم نعدم من يستقبلنا ويكرمنا ، وغاية الإكرام (كما رأينا) أن ندخل القصر ، وتوقد النار في زاوية البيت الذي جلسنا فيه ويشعل فيها الغضا ، هذا الذي يضرب بحرّه المثل ، والذي ذكره الشعراء فأكثروا ، وكنوا به عن نجد ، مهوى الأفئدة منهم ، وقد رأيته مراراً فوجدته كثيراً في البادية وهو كالمشمش غير أنه أجمل شكلاً وأدق ورقاً ، وهو أشد شجر رأيناه في البادية اخضراراً ، أما جمره فكالفحم الحجري ولا مبالغة ، وقد عرفه الشاعر حين

زعم أنهم (شبوه بين جوانحه وضلوعه) ، أما نحن فعرفناه في هدا البيت حين أشعلوه وزادوا في إضرامه حتى بلغ لهيبه السقف ، ثم قربونا منه وأجلسونا الى جانبه ، فلما (تقهوينا) ونلنا حظنا من الإكرام البالغ . . سألونا سيارة تأتي بالأمير ، ودعينا الى دار أخلوها لنا . وكانت دار مفتش الحدود (عبد العزيز بن زيد) وهي أكبر دار في القريات وأجملها إلا أنها خالية لا شيء فيها . ففرشنا فيها ماكنا نحمل من بسط وفرش وإحرامات ولم أبتئس أنا بخلوها . فقد كان بساطي وإحرامي أحب إلي من كل مايمكن أن يفرشوه فيها . ولما اطمأننا على أمتعتنا وعلى مكان مبيتنا ، خرجنا نجول في القرية فإذا هي بيوت من الطين قائمة على (شاطئ) الرملة يحف بها نخل قليل وفيها حقول تزرع فيها بعض الخضر ، وتسقى من عين جارية وفيرة ، تقوم بري قسم كبير من الأراضي لو كان هناك مال[1] . وكان هناك أيد عاملة تسعى في توسيع الأراضي الزراعية وتحسين زراعتها . ويحيط بالبلدة وبساتينها ورملتها صخور أهرامية هائلة ، رهيبة المنظر ، تمتد من حولها كأنها سور إلهي . . . وحياة هذه القرى من الملح الذي يستخرج من السباخ الكثيرة القريبة من البلد ، ويصدر الى حوران وشرقي الاردن .

* * *

بتنا في دار ابن زيد هذا خير مبيت ، وقد جاؤونا بالعشاء من قصر الأمير ، فلما أصبحنا غدونا عليه ، فرأيناه شاباً ذكياً ليس بالمتعلم ولكن له مشاركة في بعض علوم الدين ، ويحفظ شيئاً من أحاديث النبي ﷺ ، تلقاها في مجالس العلم ، وتلك سنة حسنة استنها الامام عبد العزيز حفظه الله[2] . فجعل ليله كله للعلم ، يأتي مجلسه العلماء فيقرؤون فيه كتاباً ، فإذا أتموه شرعوا في غيره ، وتكون مناقشات علمية يشترك فيها بنفسه ، وقد قلده الأمراء جميعاً في ذلك ، فمن هنا مايحفظ هذا الشاب نائب أمير القريات .

---

(١) كان ذلك قبل اكتشاف البترول .

(٢) رحمه الله .

استقبلنا بنفسه على عتبة الباب ببشر وايناس ، وجلس معنا يحدثنا ونار الغضا تلفح وجوهنا . ولبثنا على ذلك ساعة لم يدع فيها الأمير دقيقة واحدة قولةَ : قهوة . شاهي ، شاهي ، قهوة . يدور علينا بها عبد أسود كأن شفتيه غطاء ووطاء ، وكأن جسمه المحمل ، ثم أديرت علينا المجمرة وفيها البخور ، بخور العود ، فلم ندر مانصنع بها ، ثم وجدنا الأمير يضم عليها طرفي كوفيته أو عباءته حتى يتعشق الطيب ثيابه ، ثم يدعها فصنعنا مثله ، وانتهى العبد من إدارة المجمرة ، فرأيت الأمير ينظر الينا ، فقام الشيخ الرواف واستأذن ، وقمنا معه على أن نجتمع الظهر بالأمير على الغداء . .

فلما خرجنا ، قال الشيخ الرواف : ألم تسمعوا المثل النجدي ؟ قلنا : وماذاك ؟ قال : « إذا دار العود فلا قعود » فعلمت سر نظر الأمير الينا ، وتمنيت لو دخل هذا المثل بلادنا ، حتى عرفه الناس ، ثم ذكرت أن عندنا ، بحمد الله ، من لا يفهم بالعود ولا بالعصا ، ولا يخرج من زيارتك ، حتى تخرج غيظاً من جلدك . .

خروف برأسه

إن من دأب العادة أنها تضعف الحس ، وتذهب بالانتباه . فالغني الذي يلبس الحرير ، وينام على السرير ، ويركب السيارات ، ويملك (العمارات) لا يجد لذلك كله من اللذة مايجد الفقير المعدم ، والبائس المحروم إن نال مثله ، والشبعان لا يدرك اللذة التي يتوهمها الجائع ، والصحيح لا يعرف لنعمة الصحة قدرها إلا إذا مرض ، فلا لذة في الدنيا إلا في التنقل والتبدل ، وألا تجمد على حال مهما حسنت في ذاتها . وهذا ما أراده الشاعر حين قال :

ولذيذ الحياة ماكان فوضى ليس فيه مسيطر أو نظام

من أجل ذلك أحسسنا حين ذهبنا الى غداء الأمير ، ورأينا عادات لم نألفها ، وطرائق في الطعام لم نعرفها ، بلذة التبدل ، والاستمتاع بالجدة ، فما كاد يستقر بنا المجلس حتى أقبل العبيد فمدوا سماطاً على الأرض ، ووضعوا عليه قصعة هائلة كان يحملها منهم اثنان ، وقد ملئت رزاً وألقي فوقه خروف كامل بيديه ورجليه ورأسه ، إي والله . . . كأنهم (والله أعلم) خافوا أن نشك فيه فنحسبه دباً أو فيلاً أو قطاً ،

فابقوا على الرأس، دليلاً قاطعاً على أنه خروف أصيل من أمة الضأن لا من شعب الثعالب.

وكان الخروف مفتوح العينين، ناعس الطرف، فأخذتني الشفقة عليه، وتوهمت أنه ينظر إلينا، وأنه... ثم رأيت أن لا مجال للوهم ولا للخيال، وأن الوقت لا يتسع للأدب لأن القوم أحدقوا بالقصعة وشمروا عن سواعدهم، ونظروا شزراً، فِعْلَ من يقدم على معركة، فخشيت أن يذهبوا بالرز واللحم، ويبقى لي الخيال والوهم، ومتى أفاد الخيال جائعاً، أو أجدى الأدب على إنسان؟

وكان أصحابنا يدورون بعيونهم يفتشون عن ملعقة أو سكين أو شوكة فما وجدوا شيئاً من ذلك؛ وأبصروا القوم يأخذ أحدهم قبضة من الرز، فيديرها في كفه، ويعصرها حتى يقطر منها السمن، ويحركها كما يحرك اللاعب الكرة قبل قذفها، حتى إذا اطمأن إلى أنها صارت كالقنبلة قذف بها في حلقه، فما استقرت باذن الله الا في معدته، لا تقف في الفم، ولا تمسها الأسنان.. وطفق أصحابنا ينظرون اليهم ويعجبون، ثم أقبلوا يأكلون كما يأكلون، ولبثت منتظراً أقول لنفسي وأنا أحاورها لأقنعها، من أين تأكلين إذا لم تجاري وتماشي، وتستعدي لقبول كل ماتأتي به الحال؟ وإني لفي تفكيري، إذ حانت مني التفاتة، فوجدت القصعة قد تكشفت، والخروف المسكين قد تناثر لحمه، وبدت عظامه... فمددت يدي آكل كما يأكلون، وقد علمت أن شر طعام خير من الجوع، والرز يتفلت من بين أصابعي والسمن يملأ كفي، فاذا رفعتها الى فمي، نقط من مرفقي، ولم يكف القوم ماكانوا قد وضعوا من السمن، بل عمدوا الى كؤوس يحملونها، فملؤوها وصبوا ذلك أمامنا حتى مانستطيع من كثرة الدهن أن نأكل، ولم يكن الرز ليستدير في يدي استدارته في أيديهم، بل كان يدخل بين أصابعي، حتى أضطر الى إدخالها جميعاً في فمي، وغسل وجهي كله بالسمن..

وانقضى الطعام، ولا تسألني، أشبعتُ أم لم أشبع، كيلا يطول سؤالك كما طال في هذه الرحلة عطشي وجوعي!!

ثم جاؤونا ونحن في مجالسنا، بطست عليه مصفاة قد وضعوا فوقها قطعة صابون، وإبريق يصبون منه على أيدينا على نحو ماكان يصنع في دمشق قبل عشرين سنة، ولم تكن تلك طريقتهم في الغسل، وإنما يكون مثلها في مجالس الأمراء والمتحضرين من العرب. أما البدو، فيجزئهم الرمل. وقد بلغنا عن بعض البدو في جهات الشام، أنه اذا كانت وليمة أو غداء كالذي نصف، خرج الضيوف فمسحوا الدهن الذي في أيديهم بباب الخيمة. وعندهم أنه كلما ازداد عليها من الدهن ازداد كرم الرجل وفخاره.

* * *

في القريات

ثم خرجنا نجول في البلد، وقد علمت أي شيء هذا البلد فاستقريناه كله في ساعة، ثم دخلنا المسجد، فرأيناه داني السقف قائماً على عمد دقاق من جذوع النخل، جدرانه من الطين، وأرضه مفروشة بالرمل، لا بساط ولا (سجادة) ولا حصير، فسألنا متعجبين، فعجبوا من عجبنا، وأنكروا سؤالنا، وكأنهم استخفونا واستجهلونا، لأن من المقرر عندهم (كما علمنا بعد)، أن هذه هي سنة السلف، وعليها مساجد نجد كله اليوم. وأنا رجل سلفي، ولكني لست من المتمسكين بحرفية النصوص، ولا ممن يأخذها بلا فكر، وأنا أفهم أن المسجد في الاسلام يستحب فيه الخلو من الزخارف التي تشغل عن الصلاة، وتطلب فيه البساطة، ولكن البساطة مردها الى العرف، وليس مدارها على الرمل والطين. والذي أفهمه أن فرش المسجد بالبسط النظاف، وتحوير جدرانه أو دهنها بلون واحد، واتخاذ مكان فيه للأحذية حتى لا توضع حيث توضع الجباه، ومدافئ للشتاء إذا كان البلد بارداً، ومراوح كهربائية في البلد الحار، وإقامة مكبر للصوت في مثل مسجد دمشق الذي يجتمع فيه اليوم لصلاة الجمعة أكثر من عشرين ألف مصلٍ كل هذا لا ينافي سنة البساطة، وإن لم يفعله السلف للجهل به أو لعدم الحاجة اليه. ومصيبتنا نحن المسلمين في هذه الأيام

أننا لا نعرف التوسط ولا الاعتدال ، فمنا من ينطلق وراء عقله وحده لا يتقيد بوحي ولا كتاب ، ومنا من يدع العقل والكتاب والسنة ليفكر بعقول من مضى من فقهاء القرن التاسع والعاشر ، أو يأخذ من الكتاب والسنة ، ولكنه يفهم بالحروف والألفاظ ، ويدع ماوراءها من المجاز والاشارة والحكمة والمصلحة . . .

* * *

عدنا الى الدار التي منحونا مفتاحها ، نتحدث ونسكت وننام ونفيق ، ونقرأ حتى نمل ، ونمل فنعود الى القراءة حتى تصرّم النهار ونحن نظنه من ثقله شهراً . وقد عرضت مرة في بعض مقالاتي الى تحليل الحس بالحياة ، فكان من رأيي أن الحياة أصعب شيء على الانسان ، وأنه لا يستطيع أن يحملها ، فهو يقطعها أبداً بحديث أو مطالعة أو عمل أو ماهو من ذلك بسبيل ، فإذا خلت حياته من شيء يشغلها عادت هماً وحملاً ثقيلاً . وكذلك كانت حياتنا ذلك اليوم في (قريات الملح) . وكنا قد سألنا الأمير دليلا ، وأقمنا ننتظره حتى جاء ، وإذا هو سيد من سادات (الشرارات) عُمّار تلك الديرة ، والعشيرة صاحبة النفوذ فيها اسمه (صُلَبى) ، ولي في صفته كلام أول قصة (أعرابي في حمام)[1] مازدت فيه على الحقيقة وإن كنت قد أقمت القصة على الخيال ، فليرجع إليه من شاء ثمة .

وقد أبدلنا الله بدرهمنا ديناراً حين صرف عنا الحاج غراباً الجاهل الجامد ، الحضري الثقيل ، وجاءنا بهذا الأعرابي الفكه الظريف الذي أخذنا منه فوائد كثيرة ولمسنا في صحبته السلائق العربية لمساً ، الذكاء والوفاء والإباء ، والمنطق البليغ والذاكرة القوية والجواب الحاضر والصبر والإيثار . وأشهد لقد أحسن الينا أمير (القريات) حين اختاره لنا . فلما حضر تجددت عزائمنا ، فأعددنا ثقلنا وذهبنا نودع الأمير ونستأنف السفر ، وكان أهل البلد مجتمعين حول الدار التي نزلناها ، وكان مجيئنا من الحوادث الكبرى في البلد . فمشينا بينهم ، ودخلنا الحصن ، فوجدنا الأمير قد أعد لنا مجلساً في رحبته ، يشرف على الفضاء ، ودعانا الى المبيت ، وألحف علينا ، وذهب يلتمس الى إقناعنا الطرق ، ونحن نعتذر ونتملص ، لا أدري أكان ذلك حياء من الأمير أن نطيل

(١) وهي في كتابي (صور وخواطر) .

المكث في ضيافته ، أم كراهية البقاء في هذه البليدة الساكنه سكون المقبرة ، الخالية من كل شيء يشغل أو يسلي ، أم حماقة وطيشاً ولعل ذلك هو الأقرب . . فلما يئس منا عرض علينا العشاء فأبينا واجتزأنا بالشاهي نشربه اذ لم يكن منه بد ، وأخرجنا مما كان معنا حلوى من حلويات دمشق التي ملأت شهرتها الآفاق ، وعجزت عن صنع مثلها أيدي الطهاة ، فعرضنا منها على الأمير فطعمها فأعجبته وقال لنا : إنه ماذاق مثلها ، وخير له ألا يذوقها فيعوّده مذاقها الترف والنعيم ، ويسلبه روح الصحراء .

وانتهى المجلس مع الغروب فقمنا الى الصلاة، ثم استقبلنا البادية القاحلة حيث لا نجد حاشا تبوك والعلا ، داراً مأهولة ، ولا منزلاً معموراً ، ولا نجد إلا الرمال والصخور والشمس الملتهبة ، والفضاء الأرحب ، حتى نصل بمشيئة الله إلى مدينة الرسول ﷺ .

* * *

نَوْمَةٌ فِي المَمْلَحَةِ

سرنا فما جاوزنا غير ساعة حتى أظلم الليل ، وتوعرت الأرض ، وتعدر المسير ، فأمرنا الدليل بالنزول ، فنزلنا وجعلنا من عادتنا بعد ذلك ألا نسير إلا نهاراً ، وإن اضطررنا إلى مشي الليل اخترنا الإدلاج من آخره على السرى من أوله . .

وكان نزولنا في أرض رخوة ماألقينالها بالاً ، فلما نصبنا الخيمة وبسطنا البسط وقعدنا إذا بها تعصر ماء واذا هي سبخة من تلك السباخ التي يستخرج منها الملح ، فتفرقنا وأبعدنا رجاء أن نصيب أرضاً خيراً منها فما وجدنا ، فاسترجعنا وندمنا على ترك البلد ، والسفر ليلاً ، والإعراض عن دعوة الأمير . وأمضينا الليل على شر حال ، منا من نام وسط الوحل ، وما السبخة إلا وحل . فأصبح يشكو الرثية (الروماتيزم) أو يحس الأذى في ظهره ، ومنا من لبث الليل كله في السيارة لا يستطيع أن يتحرك أو يمد رجله ، ولقينا من الشدة ماذكرنا معه بالخير ليلة (أم الجمال)

رب (ليل) بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

* * *

بعد القريات

تبدل عليّ كل شيء منذ فارقت (القريات) . فلقد كنت قبل أن أصل إليها أفكر فيها وأراها غاية سفري ، فصرت أمشي من بعدها لا أعرف لي غاية إلا تبوك ، وأين نحن من تبوك حتى نفكر فيها ؟ وكيف وبيننا وبينها أيام وليال ؟ وكنت آسف على فراق دمشق فصرت لا أفكر فيها إلا لماماً ، وأحسست كأني منقطع حقاً عن العالم . فلا بشر إلا الرفقة التي أصحبها ، وليس إلا الرمل والتلال والسراب مشهد نراه ، وكان عملنا كله التدقيق في الأرض والانتباه الى الدليل ، لنتجنب الخوض في رملة ، أو المرور على شِعب ، أو الالتقاء بصخرة . ولقد كنت أنظر تارة إلى هواننا على الصحراء ، وأفاضل بين صغرنا وجلالها ، وفنائنا وبقائها ، فأحس الصَّغار ، وأشعر بالعجز ثم أنظر فلا أرى فيها إلا إيانا قد انفردنا بين شرقها والمغرب وانبسطت تحت أرجلنا وامتدت الى الأفق البعيد ، ونحن نغزوها ونوغل فيها ، ونحمل حرها وبردها ، ولا نبالي شمسها ولا رملها ، فتغمر نفسي القوة ، وأرفع رأسي فخاراً ، وأتيه زهواً . .

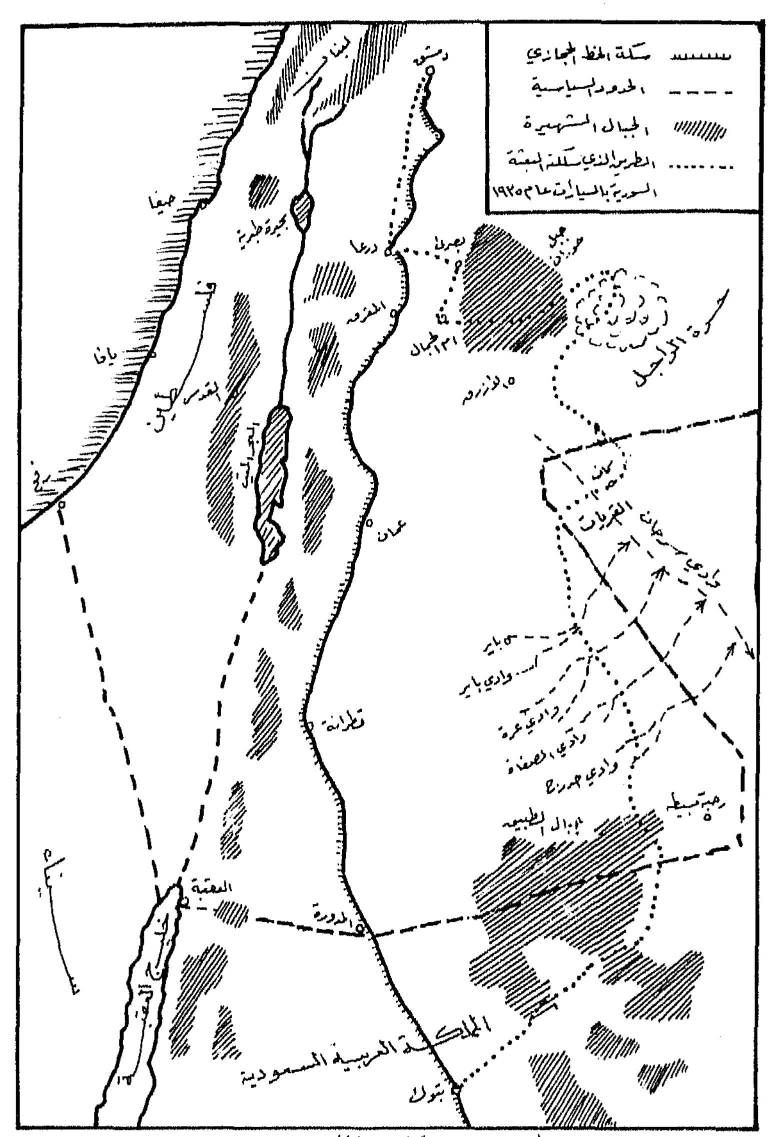
وكنا نسير النهار كله ، سيراً بطيئاً . وما أكثر ماتقف نخرج سيارة غاصت في الرمل ، أو نتحرى خير الطرق ، أو ننظر في (الموصلة) لنتبع أبداً الجنوب ، وكنا أبداً على استعداد للوثوب من السيارة . فاذا مالت الشمس واصفرت ، نزلنا فنصبنا خيمتنا وأكلنا وشربنا الشاي . . وأنا أحلف أني على ولعي بجمال الطبيعة ، وارتيادي الجبال والأودية ، ووقوفي بالعيون والينابيع ، ومقامي على الشواطئ وحيال الشلالات ، ما رأيت منظراً أجل ولا أجمل ولا أحفل بالعظمة والمتعة من أماسي الصحراء ، حيث تضطجع على تلة من التلال ، ثم تمد بصرك الى الجهات الاربع فلا يحجزه حاجز ، ولا يقف في سبيله شيء ، فترى الشمس وهي تغيب في الأفق الغربي ، وظلام الليل وهو (يشرق) من الأفق الآخر ، والنجوم وهن يطلعن في السماء الصافية ، وتحس بلطف الليل ورقة نسيمه كما أحسست بجلال النهار وحدة شمسه ، ثم تقوم مع الفجر قوياً نشيطاً ، قد قبست من روح الصحراء روحاً جديداً لتستقبل الحياة بعزم جديد .

الصحراء

قرأتم في المقالة الماضية وصفاً للصحراء ليلها ونهارها وشدتها إذا اشتدت ولينها إن لانت ، على أنها تختصر صفتها ويوجز تاريخها في كلمتين اثنتين هما : الحب والحرب ، فليلها للحب ، ونهارها للحرب ، حرب مع الشمس اللاهبة والرمال المشتعلة ، والضلال والموت ، وحرب مع الناس ؛ فإذا أدركك المساء ، ولا يدرك مساءها إلا كل بطل صبار قوي متين ، تفتح للحب قلبك ، فأحسست فيه بشوق إلى الهيام كشوق الظمآن الى الماء الزلال ، وشعرت كأن البادية كلها ملكك ، فأنت منها في روضة وغدير ، تعانق ، بدوها إن لم تجد من تعانقه ، وتسامر نجمها إن أعوزك من تسامره ، ويقبل عارضيك نسيمها الرخي الحبيب الذي يصور لك أنفاس الاحبة . .

أشهد لقد نقّت ليالي الصحراء نفسي ، وصفّتها ، وعلمتها الشعور بجمال القبح وأنس الوحشة وأغاني الصمت ، فعرفتْ جمال الكون ، فأوصلها الى معرفة كمال المكوّن ، كما صهرت أنهار الصحراء عزيمتي فألقت عن نفسي أوضار الخوف والجبن والضعف والتردد ، وأشعرتها عظمة الطبيعة وقوتها ، فشعرت بعظمة الطابع ، ولم أكن أعدم النظر في الآفاق الواسعة ولا حرمت التحديق في المناظر البعيدة ؛ وإني لأبصر من شبّاك داري دمشقَ كلها وغوطتها والقرى المنثورة فيها ، لا يغيب عني من ذلك شيء فأرى فيها نهاية الجمال والرواء ، ولكني لا أرى فيها طهر الصحراء ولا صفاءها . الصحراء مبسوطة مكشوفة كالرجل الصريح الشريف ظاهرها كباطنها لا تخفي سرا ولا تبطن دون ماتظهر أمراً . . . ليست كالمدن ولا كالرياض ، والله وحده يعلم كم يتوارى خلال تلك الأشجار المزهرة الخضراء ، وتحت تلك السقوف المزخرفة والقباب والسطوح من رذائل ورزايا ، وكم يسكنها من عوالم الكذب والنفاق والحسد .

إن الله حرم الصحراء رواء المدن ، وروعة السهول وفتنة الأنهار ، ولكنه أعاضها عن ذلك ماهو أحلى وأسمى ؛ جمال الصدق وبهاء الصراحة ، وسنا الاخلاص ، ليس في الصحراء مثل النيل ولا الفرات تأوي الى ضفافه ، وتبصر غروب الشمس في مائه ، وتمخر بالزورق عبابه ، وما فيها إلا برك وغدران قليلة الماء غير دائمة ولا باقية ، ولكنها على ذلك أجل من النيل ، وأجمل من الفرات لأنها في . . . الصحراء . . !



خطط لرسم المخطط ياسين الحموي ورسم خطة السير المؤلف .

ليالي الصحراء
منطقة

لست أستطيع أن أترجم لك عما لليالي الصحراء من معنى في نفسي ، لأ ن لغة الألسنة لا تترجم عن القلوب . وياليتني أقدر أن أصف لك تلك الكائنات الخفية التي تعيش في ليالي الصحراء فتخاطب القلوب بما لا تنقله الأقلام . .

واشهدوا على أني أوثر الصحراء على كل مظاهر الطبيعة المطبوعة ، إلا الأودية والجبال ؛ فإن للجبال السامقة ذات الصخور الماثلة كالجبابرة لا تبلغ هامها النسور ولا العقبان ، ولا يسكنها إلا الثلج الأبيض . . . والأودية العميقة التي لا يبلغ قرارتها إلا الشلال المتحدر من أعالي الجبال ، ولا يعيش فيها إلا النسواقي الحائرة التي تهيم على وجهها ذاهلة لا تصحو إلا على جرجرة أمواج البحر الذي يفتح فاه لا بتلاعها . . وإن في التواء الوادي حتى يضيع الطريق فيه ؛ وفي اختفاء الشعب الضيق خلال الصخور ، وفي ضلال الساقية بين الحشائش والحجارة ، لمعنى من معاني المجهول لا ألقاه في الصحراء المكشوفة العارية . ولكن للصحراء سحرها وجمالها وإني لأفضلها على السهول والبساتين . .

* * *

الطريق إلى تبوك
منطقة

سلكنا بعد القريات مهامه وفلوات لا يعرف لها أول ولا آخر . ولا أدري ولا يدري أحد ممن كان معنا أين موقعها على المصور الجغرافي . وكنا كلما زدنا إيغالاً في الصحراء زادت بنا بعداً عن مظاهر الحياة ، حتى أحسسنا كأن قد ودعنا هذا العالم ، وكأن دمشق وبغداد والقاهرة صور شعرية تخطر على البال ويدركها الخيال

ولكن الواقع خلو منها، واسترحنا من هموم الاجتماع ومشاغل السياسة وأعباء الفكر واستسلمنا إلى المقادير، فغدا شعورنا بالحياة كشعور من يرى في نومه أنه سائر على وجه الريح، أو مضطجع على صفحة الماء يحمله إلى حيث يشاء، فإما أن يغرق وإما أن يبلغ ما يريد، ولكنه على الحالتين راض قانع لا يشكو ولا يتبرم.

وكان همنا الأكبر أن نتأمل الأرض أو ننظر في الفضاء لنأمن عثرة السيارة وننجو من الضلال، وما في البرية علامة يهتدى بها إلا النجوم، فعرفت بذلك معنى قوله تعالى: (وبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ). وعرفت سر اعتماد العرب عليها في تحديد مواقع البلدان حتى إن الشاعر المحتضر ليسره أن يرى سهيلاً لأنه يذكره بلاده وأرضه . . .

وكنا نمر على الأرض المتماسكة الصلبة فنحمد الله عليها ونسرع. ثم نمر على القاع، والقاع في عرف البدو أرض طينية كان فيها غدير من ماء المطر فجف وترك فيها شقوقاً وغادرها مستوية كالطبق، ويسمى القاع في بادية الشام (على طريق بغداد) طليحة . . ونمر على مسيل قد جرف الماء ترابه وأبقى فيه حجارة كباراً وصغاراً، وهو والشعب شر مانمر عليه، والشعب في عرفهم أرض فيها رمل قليل هش ونبات صحراوي . . . أو نصعد رابية أو تلة، وامتدت هذه المرحلة (من القريات إلى تبوك) أربع ليال، مررنا فيها على مياه من مياه العرب، وهي آبار منتنة خبيثة الطعم واللون والرائحة، تضع المنديل بين فمك ومائها فتلقى عليه مثال الوحل أو ماهو أخبث، تسمى غطى والعيساوية والفجر، ولم نصادف في هذه المرحلة ماء غير ذلك . .

ولا تسألني أين هذه المياه، ولا تطلب إلي تحديداً ولا يقيناً فلست أعرف ذلك؛ وإنما أعرف أننا تركنا وادي سرحان عن شمالنا، وسرنا قبل الجنوب حتى لا حت لنا على اليمين جبال عالية؛ فأممناها حتى إذا اقتربنا منها سرنا بحذائها على أرض ما رأينا أعجب منها، فهي أرض سوية متسعة مشينا في طرفها تسعين كيلاً؛ فيها حجارة سود دقاق مرصوفة رصفاً، كأنها أرض ميدان واسع في مدينة كبيرة، فرشت وثبتت بالمداحل، وهم يسمونها (بُسَيْطَة) بصيغة التصغير. وسلوا أهل

الجغرافيا يعرفوكم موضعها على المصور ، حتى وجدنا ثغرة في الجبل فدخلنا منها . فاذا نحن في واد ما رأيت في عمري مكاناً أو حش منه . وكلما أبعدنا فيه ازدادت وحشتنا . ولم يكن حولنا الا الصخور والتلاع والقلل الشامخة والوادي يتشعب بنا ويتفرع ، ونحن منفردون بين ذلك كله وطال الوادي حتى أمسى علينا المساء فبتنا فيه . ولم ندر أننا ضالون حتى أصبحنا غداة الغد . فخالط قلوبنا الرعب من أن تكون خاتمة مطافنا أن ندفن في بقعة لا يمر فيها إنسان ونحرم قبراً يستوقف السالكين ، ويستجديهم دعوة صالحة . وكانت ساعة يأس أحيت في نفوسنا الماضي الذي ظننا أنا نسيناه فتلفتنا بالقلوب الى دمشق فإذا نحن منها على مسيرة سبع ليال بالسيارة . ولكن ما إليها من سبيل فجعل كل منا يذكر أهله وأحبابه ، ويتخيل ماذا يحل بهم من بعده ، ويتصور بردى يجري زاخراً دفاعاً ونحن نكاد نموت عطشاً لأن الماء الذي معنا قد شح ونَفِدَ إلا الأقل منه احتبسه الأقوياء منا . وبلغت المسألة مبلغ التنازع على الحياة . ولم يبق إلا الأثرة الشنيعة أو الإيثار البالغ . وحار الدليل وأظهر حيرته حين لم يعد مكان لإخفائها . وكان يدع السيارة في قعر الوادي ويصعد قمم الصخور ينظر فلا يرى شيئاً . فيعود فيسير بنا على غير هدى . حتى نظر مرة وكان ذلك في مساء اليوم الثاني لدخولنا وادي الموت هذا . . فلمح جبلاً فهلل وكبر وقال ، وصلنا . . . هذا شَرَوْرى !

وشرورى جبل قريب من تبوك أظن أن (ياقوت) قد ذكره . فسرنا الى الليل وشرورى مكانه عند الأفق لا يدنو ولا يريم . فنزلنا للمبيت ... وعاودنا السير من الصباح فاختفى الجبل وهبطنا الى جوف الأرض حتى وصلنا الى موضع رأينا فيه جبلاً عظيماً يسد الوادي فتشاورنا فلم نجد بدأ من صعوده بالسيارات وما تحمل من الأثقال . فجعلنا نصعد وندور ونحتال على الارتقاء حتى اذا بلغنا القمة بعد مخاوف ومتاعب لا ينفع معها وصف . نظرنا تحت أرجلنا . فاذا في الحضيض الأوهد البعيد فضاء فسيح كالبحر . في وسطه سواد . كأنه باخرة ماخرة . فقال الدليل مشيراً اليه هذه تبوك !

* * *

في تبوك

أبصرنا الشمس وهي تغيب في اخر السهل . ورأينا سواد الليل يمتد حيال الأفق الشرقي . ونحن لا نزال في أعالي الجبال المطلة على تبوك . والفضاء الأرحب الذي يحيط بها فتنازعنا الرأي واختلفنا ، أنبيت مكاننا فنهبط تبوك مصبحين أم نصبر على ما نجد من السغب واللغب . ولا نبالي الليل وظلمته . ونتم طريقنا اليها . فننام فيها نوم الآمن .. وطال الخلاف ولم يكن علينا أمير منا . مع أن ذلك من السنة واليمن . والبركةُ فيه . فقطعت سيارتنا كل قول حين أخذت طريقها هابطة . وتبعتها السيارات بلا جدال . وكان ضوء السيارات وهي فوق الجبل متوجهة الى تبوك يبدو قوياً منظوراً . وكان أمير تبوك على علم بقدومنا . فبعث الينا بسيارته تستقبلنا وتهدينا . فعرفناها بضوئها . فتبعناها حتى بلغت بنا السهل . ثم أوصلتنا البلد . وقد كاد ينتصف الليل ...

* * *

وصلنا البلد على حال لم نكن نملك معها ملاحظة ولا نظراً . ولقد شغلنا مانجد من الجوع والتعب عن أن نبصر المدينة . أو نرى مسالكها . وما عرفت إلا الدار التي أنزلونا فيها . وليست داراً كالتي عرفنا في القريات . ولكن بناء حضري واسع منظم . مبني على طراز فني مقبول . ذو ردهات وغرف وأبهاء . فأدخلونا بهواً فيه . مفروشاً بالبسط والوسائد والمساند . استقبلنا فيه الأمير « السديري » وهو شاب مهذب[1] . على غاية من اللطف والنبل والرقة ودقة الملاحظة . وقد علمت أنه من أنسباء الملك « عبد العزيز » أعزه الله .

---

(١) سمعت كثيراً من اخواننا يستعملون كلمة « جنتلمان » بدعوى أنه ليس في العربية ما يقابلها . مع أن كلمة « مهذب » هي نفسها . وقد استعمل هذا الحرف بهذا المعنى « تقريباً » منذ الجاهلية . قال النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

فلما استقر بنا المقام ووجدنا بعض الراحة . أحببت أن أقوم فأجول في القصر . فلما خرجت من البهو عرض لي أحد العبيد وهم كثر في القصر . فقال لي : من هنا . فتبعته وأنا لا أدري الى أين يسير بي . حتى انتهى الى باب . فأشار اليه وتخلى عنه . فدخلت . فإذا أنا في حمام ما ظننت أني ألقى مثله في دمشق . له ظاهر وباطن وفيه الماء البارد والحار والرشاش « الدوش » والمناشف معلقة والصابون مهيأ . فدهشت وفرحت فرحاً ما أفرح مثله لو أعطيت مائة دينار مع أني لم أرها قط ولم تحتوها يدي الى الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمة . . . فعدت فاستخرجت من حقيبتي ثوباً نظيفاً ولم أرض لثيابي التي كانت علي إلا بيت النار ـ أحرقتها والله ـ ودخلت الحمام وأنا أنظر الى الباب أخشى أن ينزل علي من يشاطرني هذه النعمة أو ينغصها علي فلا أهنأ بها وأقبلت أصب على جسمي من الماء الحار فأحس له بعد هذا التعب بما تحس الأرض اليابسة هطل عليها المطر . . . حتى اذا انتهيت عدت الى أصحابي بوجه متورد . وثياب نظيفة . فجن جنونهم عجباً ودهشة . ولكن وجود الأمير أمسك ألسنتهم فلما جلست أفضيت الى جاري بالأمر فتسلل من مكانه الى الحمام . وما زالوا يذهبون واحداً بعد واحد حتى اغتسلوا جميعاً وكان إعداد الحمام أول ما شهدنا من لطف الأمير السديري ـ أمير المدينة المنورة الآن[1] ـ وتهذيبه .

فلما انتهوا وكان الهزيع الأخير من الليل دعينا الى المائدة . وكان فيها الخروف « المعهود » برأسه ... ولكن حوله ألواناً من الخضر كالفاصولياء والباذنجان والطماطم موضوعة في أطباق صغار . وعلى المائدة الملاعق لمن شاء . فجلس الأمير وجلسنا . وأكلنا أكل من لا يخشى البشم !

ولم نفق إلا في ضحى الغد . فأفطرنا ورأينا البلد . فإذا الدار التي نزلناها مستشفى كبير كان العثمانيون قد أقاموه عند ما مد الخط الحجازي . وأمامه رحبة واسعة جداً . ويقابله من آخر الرحبة المحطة العظيمة . وبينهما على يسار من يقف على باب المستشفى ويستقبل المحطة بساتين النخيل تتخللها البلدة . وهي ستون بيتاً .

---

(١) أي سنة ١٩٤٠ .

فيها مسجد كمسجد القريات وفيها قصر الإمارة. والبساتين تسقى من عيون ثلاث بارك الله فيها إكراماً لنبيه ﷺ. على ما هو مقرر في كتب المغازي.

هذه هي تبوك، ومن حولها الصحراء، وهي نصف طريق المدينة.

* * *

ذهبنا نزور الأمير في قصره الزيارة الرسمية. فدخلنا منزلاً صغيراً جدرانه من الطين، لا يختلف عن منازل الفلاحين في القرى الصغيرة من قرى الشام. فصعدنا درجاً ضيقاً ملتوياً الى ردهة صغيرة تطل على أرض الدار، ولها درابزين من خشب عادي ليس فيه زخرفة ولم يَعْلُهُ صبغ، ثم ولجنا غرفة ضيقة لم تكد تسعنا، في صدرها مكتب صغير، وليس فيها إلا مقاعد من الخشب. وكان الأمير وراء مكتبه فنهض لاستقبالنا بلطفه الذي وصفت.

وكنت قد أبصرت على الدرج وفي أرض الدار، وفي الردهة العالية عدداً عديداً من العبيد. فعجبت من كثرتهم ولم أدر ما عملهم، فلما قال الأمير بصوت منخفض: قهْوة. سمعت العبد الذي يقوم على رأسه يقول بصوت أرفع: قهْوَة. فيقول الذي على الباب: قهْوة. فيصرخ الذي في الردهة: قهْوَة، فينقلها الذي على الدرج ثم الذين في أرض الدار حتى يبلغ الصوت صانع القهوة. وكانت تلك عادتهم ولكنا لم نعرفها، فما راعنا ونحن نسلم على الأمير ونتحدث إلا ستون قهوة ... قهوة ... بأصوات كالصوت الذي ذكره ربنا في القرآن، تخرج متعاقبة متلاحقة كصراخ الجن، لا يفهم منها شيء. فلم ندر ماذا حدث، وعملت المفاجأة عملها في نفوسنا، فمنا من صاح ومنا من ابتدر الباب، ومنا من سقط على الأرض ومنا من وضع يده على سلاحه ... وكان الأمير مبتسماً مسروراً من هذه الدعابة ...

وليس كثيراً أن نحمل في سبيل القهوة هذا الفزع، فإن للقهوة عند العرب اليوم من الشأن ما يقل معه كل تعب ينال من أجلها، ولها عندهم قواعد وقوانين لا معدل عنها ولا ترخص فيها، فمن قوانينها أن البن يدق بالهاون[1] دقاً حتى يسمعه الضيفان

---

(١) الهاون من عامي الشام الفصيح.

فيهرعوا اليها . ولا يجوز أن يطحن طحناً لأن ذلك من اللؤم . وأنهم يتخذون لها أواني كثيرة يصبون القهوة من إناء الى آخر ليصفوها ويرققوها . ويسمون كل (دلة) من هذه (الدلال) باسم . فهذه العروسة . وهذه الأم ... ولقد رأيت عند أمير تبوك أكثر من عشرة أوان (دلال) كلها مملوءة . والساقي يحبها حباً شديداً . ويراها في معدلة أولاده ...

وهم يخلطونها بحَبّ (الهيل) . ويضعون قطعة من الليف في فم الدلة تقوم مقام المصفاة . فاذا نضجت القهوة قام الساقي فأخذ الإناء باليسرى وقدم الفناجين باليمنى . ويرون تقديمها باليسرى كما يفعل الشاميون . إهانة للضيف قد تجر الى سفك الدم والعياذ بالله تعالى .. فيأخذ الضيف الفنجان بيمينه فيشربه ويدفعه اليه . فلا يزال يصب فيه حتى يهزه الضيف ثلاث هزات علامة على أنه قد اكتفى . ولا يصبون في كل مرة إلا رشفة واحدة لا تكاد تستر قعر الفنجان وعندهم أن هذا من الإكرام . وإذا ملأ الساقي فنجان أحدهم كان ذلك احتقاراً له . ويبدأ الساقي ممن على يمينه ثم يعطي من يليه وإذا هو تخطى واحداً فقد أهانه إهانة بالغة لا يصبر عليها إذا كان شريفاً . وإذا اكتفى الضيف ولم يأخذ الفنجان بعد أن يصبه الساقي وجب على الساقي أن يشربه هو أو يريقه على الأرض ولو كان على الأرض بساط قيم أو سجاد ثمين . ولا يدفعه الى الذي بعده ..

هذا جانب من قوانين القهوة . وللقهوة عند العرب شأن كبير فقد يستغني البدوي عن الطعام والماء ولكنه لا يستغني عن القهوة ، ولا يعدل بها شيئاً . وقد يميل عن الطريق مسيرة يوم ليشربها . وقد حدثنا أستاذنا شكري الشربجي . وقد كان على رأس فرقة عسكرية من العرب ايام الملك حسين رحمه الله انه افتقد جنده في ساعة حرجة فلم يجدهم ، فلما عادوا سألهم . فخبروه بأنهم افتقدوا القهوة فذهبوا ليشربوها فقال ، في مثل هذه الساعة تهتمون بالقهوة ؟ قالوا :

والله يا بيك نتقهوى ولو كان في خشم الأسد .

وللعرب بالقهوة اهتمام عظيم حتى أنهم من اهتمامهم بها نحتوا من اسمها فعلا

هو تقهوى يتقهوى تقهوياً . وتوسعوا في معنى هذا الفعل حتى شمل الشاهي والطعام يؤكل في الصباح[1] فهم يقولون (أقلط تقهوى) أي تفضل اشرب القهوة أو اشرب الشاهي أو كل ... وقد يقولون اتقهوى شاهي ...

هذه هي القهوة . وهي لذيذة نافعة لا يقوم مقامها شيء في إراحة الجسم بعد التعب الشديد والسير في الصحراء تحت الشمس المحرقة . وقد جربنا ذلك بأنفسنا . أما الشاهي ـ أعني النجدي منه ـ فسمّ ناقع يشرب فيه شاربه المرض والحمى . ذلك أنهم يأخذون الشاي الأحمر فيغلونه على النار . ثم يغلونه حتى يصير أسود مثل دم الغزال ـ على حد تعبيرهم ـ ويشربون منه كؤوساً كثيرة . ولو أنك كنت في ضيافة أمير أو شيخ من مشايخ البدو . لم يمر عليك دقيقتان لا يقدم لك فيهما قهوة أو شاهي . ولا تفتأ تسمع الأمير أو الشيخ يصفق وينادي :

قهوة . شاهي . شاهي . قهوة . فتصور مجلساً على هذه الحال يمتد ساعتين أو ثلاثاً .

تلك هي القهوة . وذلك مبلغ غرامهم بها ...

* * *

(١) كحفلة الشاي عندنا .

في طريق المدينة

نشرت سنة ١٩٣٥

في جوف حمار

لفح وجهه نسيم الهواء البارد ، فهم بأن يقوم الى النافذة فيغلقها ، ويعود الى سريره ، ثم تخاذل واسترخى ولبث مستلقياً فسمع أصواتاً غريبة خيل اليه أنها أصوات الوحوش أو أحاديث الجن فجمد من الخوف ، وحدّق فيما حوله ، فرأى كأنما هو نائم في أرض الشارع ، وعلى جانبيه أبنية فخمة عالية ، مربعة ومستديرة ، والوحوش تطل عليه من أعاليها ، تصرخ صراخاً مرعباً ، فاستعاذ بالله من هذا الحلم ، وتقلب في فراشه ، وألقى بيده على طرف السرير ، فأحس كأن قد وخزته إبرة ، أو كأن حية لدغته فقفز مذعوراً ، وإذا هي الحقيقة لا الحلم ، واذا حيال يده نبت من نبت الصحراء ، قصير شائك يقال له القتاد ... كانت تضرب به الأمثال ، وإذا هو في البادية في (خوْر حمار) ، وإذا الرحلة تمتد به ثلاثة عشر يوماً ، وهو لا يزال دون (العلا) ولا يزال بينه وبين المدينة جبال وصحارى ، تسير فيها السيارة أياماً وليالي ... فجلس يذكر ما رأى في هذه الرحلة من ألوان العذاب ، وأشكال الخوف ، وما مرّ به من مشاق وصعاب ، أبصر فيها الموت عياناً ، ويئس من النجاة . . . وذكر أنهم طالما تمنوا الموت لِما وجدوا من العناء ، وأنهم طالما سلكوا من شعاب تقوم فيها السيارة وتقعد ، ولا تنجو من شدة الا الى أشد منها ، وربما ساروا في رمال كانت تغوص فيها السيارة الى المرقاة فيدفعونها دفعاً ، ويمدون لها الخشب على الأرض مداً ، وطالما صعدوا بها جبالاً

يُعجز صعودُها الماشي على رجليه فكانوا يجرّون السيارة بالحبال ، وطالما هبطوا أودية لا يهبطها ممثلو الروايات الأميركية ... وأنهم ساروا ألفاً وستمائة كيلٍ في أرض لم تطأها قط سيّارة منذ خلق الله الدنيا ... وأنهم سلكوا بين تبوك والعلا ، مسلكاً في جبال (المطلع) ساروا فيه بالسيارة من ضحوة اليوم الى عصر الغد ، فلم يقطعوا من الطريق خمسة عشر كيلًا ... وكانوا يدورون فيه كما دار بنو اسرائيل في التيه . يمشون ما يمشون ثم يعودون من حيث جاؤوا ، وجبال المطلع جبال عظيمة غريبة الشكل ، ليست سلاسل ، ولكنها آكام عالية ، وجبال منفردة سامقة الذرى ، محدّدة القمم ، تشبه ذراها رؤوس المآذن ، وهامَ البروج ، لها منظر جميل فتان ، فيه هيبة ، وعليه جلال ، وهي منثورة نثراً ، تفصل ما بينها مضايق ، وطرق صخرية ملتوية متشابهة ، حار فيها الدليل ، وكان معهم دليل حاذق ، شيطان من شياطين العرب ، يقال له (محمد الأعرج) من مشايخ (بني عطية) ، وهو أعرج طويل له عينا ذئب ، حاد الذكاء ، ضيق الصدر مخيف ، كانوا يتهيّبون سؤاله ، فداروا في هذه المسالك حتى نفد منهم الصبر وأدركهم الإياس ، فصعد الدليل قُنَّة أكمة ، فنظر يميناً ، ونظر شمالاً ، ثم صاح ، لا اله الا الله ، وتلك عادتهم ، اذا أبصروا وادياً ، أو رأوا سهلاً ، أو طلع عليهم جبل تشهدوا ... ثم نزل يظلع وقادهم في طريق ملتوية حتى جاوز بهم المطلع ، وأشرف بهم على السهل الفسيح ، وكان عليهم أن يهبطوا السهل ليخترقوا جبل الأقرع ، وهو قبالتهم ، فنظروا فلم يجدوا مهبطاً ، وكانوا على رأس جدار قائم من الصخر ، ارتفاعه اكثر من ستين متراً ، والنزول منه خطر محقق ، ولكن الرجوع موت أكيد واذا هم رجعوا وضلوا ، نفد ما معهم من ماء ، فهلكوا لا محالة عطشاً ، فاستخاروا الله ، ونزلوا نزولاً ما نظن سيارة نزلته منذ كانت السيارات ، تتدحرج من تحتهم الحجارة الى قرارة المنحدر ، فيكون لها قرقعة مخيفة ، والسيارة كأنما هي من الانحدار قائمة على مُقدَّمِها والركاب شاخصة أبصارهم ، ينظرون عن أيمانهم ، وعن شمائلهم لا يدرون من أين يأتيهم الموت ، وقد تابوا واستغفروا ، واستودعوا الله أولادهم وأموالهم .

مرّت عليهم ربع ساعة ، أهون منها رباط سنة في جبهة الحرب ، ثم وفق الله فبلغوا السهل وهم يَتشهدون وينتبهون كمن صحا من حلم مروّع !

وكانت الشمس قد غابت . والليل قد ارتفع . فنزلوا للمبيت يستعدون لوادي الأقرع . فلما ولجوه ذكروا بالخير جبال المطلع . ووجدوها حيال نار الأقرع جنة النعيم . والوادي عريض فسيح ولكنه وعر . كله صخور عظيمة . ورمال خطرة . إذا نجت السيارة من رملة صدمتها صخرة . وإن خلصت من الصخر غاصت في الرمل . فداروا فيه كما يدور الحمار في السانية (الناعورة) . وكان سيرهم سيرَ السواني سفراً لا ينقطع ... ثم فتق لهم التفكير وجه الحيلة . فأجمعوا الرأي على أن يركبوا السكة بالسيارات وعجبوا من أنفسهم . كيف حملوا هذا العناء كله . ولم يهتدوا الى هذا الرأي ... وكانت السكة عالية تمشي فوق الوعرة كأنها الصراط ممدوداً فوق جهنم فأمضوا ساعتين في ارتقائها . ثم لما ركبوها تعذر المسير عليها . فعجبوا من أنفسهم كيف ارتكبوا هذه الحماقة . ولم يعلموا أن السيارة لا تمشي على سكة القطار . وأنفقوا ساعتين أخريين في النزول عنها . حتى إذا نزلت جلسوا على الأرض . وقد طحن الجهد أجسامهم . وملأ اليأس نفوسهم . وانقطع أملهم من كل شيء الا من الله . وضل من يدعون إلا إياه . فأقبلوا على الله بالدعاء والاستغفار . وذاقوا من حلاوة الايمان وبرد اليقين . ما اطمأنت به نفوسهم . وارتاحت له ضمائرهم . ثم لم يلبثوا أن استجاب الله دعاءهم . وجاءهم منه الفرج . وسمعوا هتاف الجند الذين بعث بهم أمير العلا بأمر الملك عبد العزيز لمعونتهم وخدمتهم .

* * *

جلس يفكر في هذا كله فرآه هيناً إذا قيس بـ (خور حمار) وذكر كيف أمضوا نهاراً بطوله يستعدون لدخول الخور . فلما أقبلوا عليه رأوا مدخله كالشارع العظيم . على جانبيه صخرتان كبيرتان مستويتان قائمتان كالبنيان . كأنما قد بنتها يد بناء حاذق . بميزان الزئبق والشاقول . وفي وسطه جدار من الصخر عرضه ستة أمتار . يشبه في شكله سفينة عظيمة . لم تنزل بعد الى البحر . له مقدمها وجوانبها . وقد قدر أصحابنا علو هذه الصخور من مئة الى مئة وخمسين متراً . فامتلأت نفوسهم رهبة وخشوعاً ! وأحسب لو رأى هذا المر سياح الأمريكان لحملوا في سبيل رؤيته عناء السفر في البادية . مهما طال وشق ...

وأرض هذا المضيق رملية حمراء ، يغوص فيها الماشي الى الركبة ، لها شكل متموج جميل يشبه شكل البحر ، يلذ المرء أن يلقي بنفسه عليها ، فيشعر كأنما يلقي بنفسه على فراش حلو ناعم ، أو ينام على سطح الماء ... وذكر كيف انقضى النهار ، وانقضى الغد ، ولم يجاوزوا نصف المضيق ، ورفع رأسه وكان الفجر قد انبلج ، وبدت طلائع النهار ، فرأى هذه الصخور الشاهقة المستوية ، وهذه الشقوق التي تحدث فيما بينها مثل الأزقة ، يملأ مرآها النفس خشوعاً ... وذكر كيف بذلوا جهدهم ، واستعانوا بعشرين من الجنود الأقوياء ، ثم لم يقطعوا في يومين أكثر من كيلين من هذا المضيق ، وخالط نفسه الضيق والملل من طول هذه الرحلة وعنائها وما قاسى فيها من التعب والجوع ،، والعطش والنعاس ، وما عانى من سوء الصحبة ، وقبح الأخلاق ، وخاف أن تعطل السيارة ، أو يضل الطريق ، أو تمسكهم وعرة .. فينفد الماء ويموت عطشاً ولم يَخَفْ لصاً ولا سارقاً ، فقد جعل ابن السعود خور حمار وهو أفظع مكان في البادية كلها ، آمن من ميدان النجم في باريس .

وفكر أيبلغ المدينة أم يهلك من دونها ، وهاجه تصوّر المدينة ، وأحيا في نفسه الأمل فرأى القبة الخضراء وهي طالعة عليه من وراء الأفق البعيد ، وطار به الى الملأ الأعلى تخيُله الوقوف بين يدي رسول الله ﷺ ، وصلاته في الروضة ، وقيامُه من بعدُ أمام الكعبة ، وشربُه من ماء زمزم ، وسعيُه بين الصفا والمروة ، وشهودُه هذه الأماكن التي ولد فيها الإسلام ، وعاش فيها محمد ﷺ ، وكانت مهبط الوحي ، ومطلع شمس النبوة ، ومعقد الآمال من نفس كل مسلم .

واستغرق في تفكيره ، فلم ينبهه الا صوت مؤذن القوم ، يرن في هذا الوادي الساكن ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، فتردد نداءه هذه الصخور الشم ، وتمدّ الإبل أعناقها مصيخة هادئة ، ويهب البدو من منامهم ليقيموا الصلاة ، وأصحابنا السواقون ومعلّموهم يغطّون غطيط البكر ...

ثم قام الى الصلاة ، فامّحى الخوف من نفسه ، وصغرت عليه البادية وهانت عليه مشاقها ، وتضاءلت هذه الجبال القائمة ، حتى كأنها دكت بالأرض ، وكأنما طويت له الغبراء ، فلم يعد ملقى في البادية على بعد ألف وستمائة كيل من منزله في دمشق

كحبّة من الرمل ، أو هو أهون على الحياة منها ، لأنها إن طارت بها ريح ، أو حملها سيل ، باقية كما كانت ، لا تموت ولا تندثر ، وهو يموت من أجل رغيف من الخبز ، وكأس من الماء . بل لقد أحسّ كأنما هو في منزله ، ولم لا ؟ وما يناله في البادية إلا ما قد كتب عليه ، ولا ينال في منزله الا ما كتب له ، واذا كان يأمن على نفسه اللصوص والاعْراب ، وينام في عرض الصحراء ، كما ينام في أرض غرفته ، لا يمنعه باب ، ولا يحميه حارس ، ولا يخالط نفسه خوف ولا جزع ، لأنه في حمى ابن السعود وأرضه ، أفلا يأمن مَن كان في حمى مَن ابن سعود عبد من عباده ؟ .

❋ ❋ ❋

وكان القوم قد هبوا فأقبلوا يصنعون الشاي والقهوة ، وجلست حيال صخرة أكتب هذه الكلمة « للرسالة » لأبعث بها مع جندي من البدو الى بريد العلا ، ولست أدري أنخرج من هذه البادية فنقرؤها ، أم تبتلعنا هذه الصحراء التي ابتلعت دولاً وأمماً وجيوشاً .

وسيقرأ هذا الفصل قراء « الرسالة » وهم في دورهم ومساكنهم لا يدرون ما الصحراء ، ولا يعرفون منها الا ذكرها في الكتب ، ووصفها في الأشعار ، فيحسبونها تسلية أو خيالا ، وما هي بالتسلية ولا بالخيال ، ولكنه مقام بين الموت والحياة .

اللهم ســـلم !



حياة البادية

أفاق سحراً ، ولا يبدو السحر على أتمه إلا في البادية فلا ليل في الجلال كليلها ، ولا صبح في الجمال كصبحها ولا نهار في الشدة كنهارها ، فجلس ينظر الى هذه الصحراء التي تمتد من حوله ، يغيب أولها في بياض الفجر المقبل ، وآخرها في سواد الليل المدبر ، وهي ساكنة سكون الموت ، واسعة سعة السماء ، فأحس في نفسه بشيء لم يحس به قط ، فقال ، لا إله إلا الله ! فخرجت من أعماق قلبه . وأي امرئ تلقيه الايام في البادية ، فيرى ليلها ونهارها وشمسها ورمالها ، ثم لا يكون أشد الناس بالله إيماناً ، وعليه اتكالاً ؟ وهو يرى أبداً من جلال المخلوق ، ما يخشع منه قلبه لجلال الخالق ، وهو يعلم أنه ليس بينه وبين أن يموت عطشاً ، أو يهلك جوعاً ، إلا أن يحيد عن طريقه ذراعاً ، أو ينحرف عن وجهته شبراً .. وكيف يكفر بالذي يرجو النجاة إلا منه ، ولا قوة له إلا به ، وليس له من يدعوه إلا إياه ؟

وكانت تلك صبيحة اليوم السابع عشر من أيام البادية فطفق يذكر هذه الأيام ، وينظر ما أفاده فيها ، فإذا هو قد عرف من خبر العرب في سبعة عشر يوماً ، مالم يعرفه في سبع عشرة سنة ، يقرأ فيها أشعار العرب ، ويتلو أخبار العرب ، ويدرس لغة العرب ، وتاريخ العرب ، واذا هو قد سافر ألفا وثلاثمئة سنة في الزمان ، لا ألفا وثلاثمئة كيل على الأرض ، وسلك الطريق الذي سلكه الغزاة الأولون ، فعلم أن سر قوة العربي الأول الذي عمل مالم تعمله الجن ، ولا تقوى عليه المردة ، حتى بنى للحضارة هذا الصرح العظيم ، فأوت اليه ، وتفيأت ظلاله إنما هو حياة الصحراء ، وأن سر عجز العربي الأخير ، حتى نام عن هذا الصرح ، وأباح العدو حماه ، إنما هو بعدنا عن هذه الصحراء .

هذه الصحراء التي لا يعيش فيها الجبان العاجز ، لأن الحياة فيها بين عيني الأسد ، لا ينالها إلا شجاع مقدام ، أخو غمرات ، صبار على النكبات ، ضحاك في الملمات ، وإلا ابن الشمس ، صديق الرمال ، حليف الجوع والعطش ذو إرادة لا تنثني ، وهمة لا تطاول ، وعزيمة لا تفل .

ولا يعيش فيها المريض ، لأنها لم تخلق مستشفى للمرضى ، ولكنها خلقت ميداناً للأبطال ، ومن أين يأتي البدويّ المرضُ ، مادام لا يؤتى من قبل معدته (والمعدة بيت الداء) .

ولا يعيش فيها الفقير ، لأن أهلها كلهم أغنياء ، وهل الغنى إلا أن تنال كل ما تطلب ؟ وهل يطلب البدوي إلا ماء له وكلأ لمواشيه ؟ فإذا أمحلت الدار أمّ غيرها ،

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى　　وفيها لمن خاف القلى متحول

ولا يعيش فيها المنافق المتملق الخداع الذي يلبس صوف الحمل على جلد الذئب ، لأن الصحراء منبسطة مستوية متكشفة ، ظاهرها كباطنها ، وليس فيها سقوف ولا جدران ، ولا مغامرات ولا سراديب ، وكذلك نفس العربي ، مافي قلبه على لسانه ، فإن عاداك فعداوة الشريف يستقبلك بالشر ولا يستدبرك به ، ويحمل إليك الموت على شفرة السيف ، لا يقدمه في كأس من الذهب ، قد خلط فيها السمّ بالدسم ، وإن صافاك آخاك أخوّة الشريف يفديك بنفسه وماله ، ولا يرغب عنك حتى ترغب عنه ، وإذا أنت أنكرت من العرب جفاء في الطبع ، أو خشونة في المقال ، فلن تنكر منهم عَوْضُ تلوّناً ولا تملقاً ، ولا تنكر منهم لين الحية ، ولا لطف المستعمر ، . على أن الجفاء ليس من شأن العرب ، ولا هو في جميعهم ، وإن فيهم للطفاً ، وإن فيهم لظرفاً ، وإن لهم لأحلاماً .

وطفق يذكر كيف كان يتبرم بهذه الأشعار التي تندب الديار وتبكي الأطلال ، ويستثقلها ويراها كأنها الدمى ، فيها جمال وليس فيها روح ، فلما كانت

أول ليلة قضاها وأصحابه في البادية . وحط الركب في (قاع الدغيلة) فوقفت السيارات الخمس ، ووضعت الأحمال ، ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران ، ورفعت القدور ، وبسطت البسط ، ومدّت الفرش ، وكمل المجلس حتى قام الراد (الراديو) بين الشيح والقيصوم ، يردّ عليهم أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم فتأتي بميوعتها وخنوثتها ، كأنها بساط شراب ، بسط في المحراب . ثم كان الصباح فنادى منادي الرحيل ، فما هي حتى طويت الخيام ، ولفّت البسط ، وشدت الأحمال ، فاذا كل شيء كأنه حلم ، أو كأنه صفحة طويت ، ولم يبق الا النؤي المهدم ، وإلا موقد النار ، فامتلأت نفسه حزناً ، وانطلق لسانه يترجم عن أصدق عاطفة ، وأعمق شعور بكلمة النابغة التي كان قد استثقلها ، وعدّها من القول المعاد ، والكلام الفارغ :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار

وانطلق (يستوقف) إخوانه لحظة ، يحيي فيها هذه البقعة التي ترك فيها ليلة من حياته ، وطائفة من ذكرياته ، وقطعة من نفسه ، ثم عاد فسخر منهم ، كيف يقفون على أحجار قد سودتها النار وحفرة حفروها حول الخيمة خشية الأمطار . (ماذا تحيون من نؤي وأحجار) ويجد القاع بعد أن تقوضت الخيام ، وطويت البسط ، وضاع المكان الذي سواه لنومه وأعده لجلوسه .

أقوى وأقفرَ من نعم وغيَّرَه هوج الرياح بهابي الترب موّار

ويطول الوقوف ، وأصحابه يستحثونه ، والسيارات (تصرخ) مستعجلة ، فيمشي وهو يفكر في هذا القاع هل يحفظ هذه الذكريات ؟ ويسأل هذا القاع : هلْ يذكر أبداً هذه الليلة التي قضاها فيه ، والعواطف التي استودعه إياها ؟ فلا يسمع مجيباً ، ولا يجد إلا أحجار الموقد ، وإلا هذا الثمام الضعيف اللين ، الذي جمعوا منه فأوقدوا به النار ، واتخذوه فراشاً ، فينشد قول النابغة :

وقفتُ فيها سراةَ اليوم أسألها عن آل نعم أموناً عَبرَ أسفار
فاستعجبتْ دارُ نعم ماتُكلمنا والدارُ لو كلمَتْنا ذاتُ أخبار
فما وجدتُ بها شيئاً ألوذ به إلا الثمام وإلا موقد النار

وتعدو به السيارة ، وهو لا ه عما حوله ، يتمثل الشاعر وقد يمم شطر الديار ، فلم يجد بها سائلاً ولا مجيباً :

ناديت أين أحبتي ؟ فأجبت ، أين أحبتي ؟ !

فبرَّح به الشوق ، واشتعلت في صدره النار وكواه الهجر ، فذهب يذكر نُعماً ، وقد كان يسايرها حتى ينأى بها عن الحي ، ثم يجلسان حتى تغيب الشمس ، ويلفهما الظلام برداء الأمن من الرقباء ، ويسبغ عليهما نعمة الحب فلا يكون بينهما إلا كل خير ، يبثها حبّه ، فتشكو له حبها ، ويكشف لها عن قلبه ، فتكشف له عن قلبها ، ولا يخفي عنها شيئاً ، ولا تكتمه شيئاً :

وقد أراني ونعماً لاهيين بها والدهر والعيش لم يهمم بإمرار
أيام تخبرني نعم ، وأخبرها ماأكتم الناس من حاجي وأسراري

* * *

وجعل يذكر كيف فهم في تلك الساعة قصيدة النابغة ونفذ الى روحها ، وقد كان يتلوها ، ويدرسها ، ويشرحها ، فلا يفهم منها إلا كلماتها وجملها ، وعروضها وإعرابها ، وجعل يذكر ماحفظ من أشعار الديار فيبصر فيه جمالاً لم يبصره من قبل ، فيعلم أن قد كان منه في ليل مظلم ، لا يرى فيه إلا سواداً فطلعت عليه تلك الساعةُ بدراً ، أراه أن وراء الظلام دنيا واسعة ، وفتنة وجمالاً ، وروضة وأنهاراً .

وجعل يذكر كيف كان يقرأ أمثال العرب ، فلا يفهم من قولهم ، (أن ترد الماء بماءأكيس) إلا أن ذلك أحزم ، فلما خرجوا من القاع ، وأقبلوا على (ماء الهزيم) الذي طالما وصفوه لهم ، وحببوه اليهم ، وجدوه بئراً منتنة خبيثة تقتل من يشمها ، فكيف بمن يشرب منها ، فعلم أن معنى أكيس أنك لا تشرب ماء خبيثاً فتمرض ؟

فلما وردوا (ماء الفجر) ، بعد مسيرة يومين في الشعب ، لم تسر السيارة فيهما كيلين متتابعين على أرض كالأرض ، ولكنها كانت تعلو صخرة ، أو تهبط حفرة ، أو تغوص في رملة ، لما وردوا الماء ووجدوه جافاً ، علم أن معنى أكيس ، أنك لا تبقى بلا ماء فتموت .

ثم نظر فرأى الصبح قد انبثق ، فأيقظ المؤذن وكان قوي الحنجرة حسن الصوت ، فأذن فزلزل البادية ، بـ « الله أكبر » فلما قال « أشهد أن محمداً رسول الله » لم يتمالك صاحبنا نفسه أن تضطرب ، وقلبه أن يخفق ، وعينه أن تدمع .

هذا آخر يوم من أيام البادية[1] . لم يبق بيننا وبين المدينة إلا نصف مرحلة . . فهل يكتب لنا أن ندخل من باب السلام ، ونقوم أمام الحجرة ، ونقول ، السلام عليك يارسول الله ؟

على باب السلام

مضت ساعة كاملة ، ونحن نعالج السيارة لنخرجها من الرمل ، نرفعها طوراً بالآلة الرافعة ، وطوراً بأيدينا ، ونزيح الرمال من طريقها ، ثم نمد لها ألواحاً من الخشب لتمشي عليها ، ونجرّها بالحبال ، وندفعها بالأيدي ، حتى إذا سال منا العرق ، ونال منا التعب ، مشت على الألواح حتى إذا وصلت إلى نهايتها ، عادت فغاصت في الرمل إلى الأبواب ، فأيسنا وبلغ منا الجهد ، وهدنا الجوع والتعب ، والحرّ والعطش ، فألقينا أنفسنا على الرمل صامتين مطرقين ، حيارى قانطين .

وتلفتّ فلم ارإلا الرمال المحرقة ،تمتد إلى حيث لا يدرك البصر ، متشابهة المناظر ، متماثلة المشاهد :

في مَهْمَه تشابهت أرجاؤه   كأن لون أرضه سماؤه

فرحت أفكر في هذه الأيام العشرين ، وما قاسينا فيها من ألوان المكاره ، وأتصور الغد الرهيب الذي ينفد فيه ماؤنا وزادنا ويلفحنا فيه سموم الحجاز وشمسه المحرقة ، فأرتجف من الرعب .

وجعلت أحدّ النظر في هذا الأفق الرحيب ، لعلي أرى قرية أو خياماً فلا أرى إلا لمع السراب ، ولا أبصر إلا هذه الجبال التي طلعت علينا أمس ، فاستبشرنا بها

(١) كتبت في البادية ، شمال المدينة المنورة نيسان ١٩٣٥ .

وابتهجنا ، وظنناها قريبة منا ، فسرنا مئة وعشرين كيلاً وهي قيد أبصارنا ، تلوح لنا من بعيد ، كأنها بحر معلق حيال الأفق ضائع بين السماء والأرض . . . لم تَضح ولم تقترب .

فشققت هذا السكون وصحت بالدليل (محمد العطوي) .

ـ يامحمد إيش تكون هذه الجبال ؟

ـ فقال ، هذه ياخوي جبال المدينة ، وحنا (ونحن) إن شاء الله الظهر فيها .

ـ قلت ، ماتقول ؟ ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتقي ، وأحسست كأن قد صب في أعصابي عزم أمة ، وقوة جيش ، وظننت أني لو أردت السحاب لنلته ، ولو غالبت الأسد لغلبتها ، ولو قبضت على الصخر لفتته ، وجعلت أقفز وأصرخ ، لا أعي ما أنا فاعل ، فقد استخفني الفرح ، وسرني من هذه الكلمة أكثر مايسرني أن يقال لي ، أنت أمير المؤمنين .

وصحت بأصحابي فقاموا كالأسود .

عالجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل ، وملنا بها عن هذه الكثبان ، حتى ألقيناها عن أيماننا ، وانتهينا إلى أرض شديدة درجت عليها السيارات ، فاستندت الى النافذة وأطلقت نفسي تطير في سماء الأماني ، فلم أدع صورة للمدينة إلا تصورتها ، وأقمتها أمام عيني ، وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال فلا أطمئن اليها ولا أجدها إلا دون مافي نفسي ، ولم يكن يربطني بالأرض الا صوت الدليل ، وهو يهتف بالسائق ،

سر يمينا ، مل شمالا ، لج بين هذين التلين ، دع هذه القارة على اليمين ، احترس من هذا الشعب ، تنكب هذه الرملة . . . ثم يعود السكون .

سرنا أربعين كيلا أخرى ، ولا تزال هذه الجبال تلوح في الأفق ، كأنها خيال حلم بعيد ، يشع منها نور غريب ، يومض من وراء القفر ، كما يومض الأمل المشرق في ظلمة اليأس ، وكنا قد شارفنا سكة الحديد ، فتخطيناها مستعبرين ، ودخلنا في

أودية مالها آخر . غابت عنا فيها الجبال التي كنا نراها فنستأنس بمراها . وقاسينا فيها الشدائد من التواء الارض . وكثرة الأحجار . وتشابه المسالك . ولم يكن فينا من ينبس . إلا أن يعرض لنا جبل أو شعب . فأسأل الدليل عن اسمه لأكتبه في دفتري الذي سرق مني في آخر الرحلة . . ثم أرجع الى صمتي الطويل . فلما زال النهار . صاح بي الدليل :

ـ هِيه . أنت يالْ كاتب . اكتب : هذا أحد !

فصحت : إذن وصلنا ؟

فقال : ماقلت لك الظهر ؟ هذا أحد . بقي نصف ساعة ؟

لم يكن يدري الدليل الأعرابي . أي ذكريات انبعثت في نفسي . حين قال : هذا أحد ! وأي عالم تجلى لعينيّ . رأيت المعركة قائمة . والمسلمين ظافرين . قد منحهم الله أكتاف العدو . ورأيت الرماة إذ يزولون عن أماكنهم . يبتدرون الغنائم . وخالداً حين يرتد بخيله . على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول . وغرتهم الدنيا . ورأيت النبي ﷺ ثابتاً مثل أحد . وحوله صحابته الغر الميامين . يذبون عن الدين ويحمون حمى النبوة . ثم أبصرت هنداً قائمة على جثة البطل السميدع . سيد الشهداء . وكان قد أكل في بدر كبدها . فأرادت أن تأكل كبده . فشقت عنها فاستخرجتها فلاكتها . فلما وجدت بفيها صلادة الصوان لفظتها . وأبصرت النبي ﷺ واقفاً عليه . يبكي . فلما رأى مامثل به شهق (بأبي هو وأمي) ولم يكن منظر أوجع لقلبه منه . ثم قال : رحمك الله ياعم . فلقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات . فوالله لئن أظفرني الله بالقوم لأمثلن بسبعين منهم . فما برح حتى هبط عليه الوحي فقام يتلو قول الله جل وعز : (وإنْ عَاقَبْتُم فعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَابِرين) فانصرف ﷺ وقد صبر وعفا . ورن في أذني صوت أبي سفيان يقول : اعل هبل . فتلفت . فما رأيت هبل . ولا شيعة هبل وإذا هو قد درج مع من درج . لم يبق إلا الله الأعلى الأجل . ثم سمعت صوت أبي سفيان . يرنّ في أذني مرة ثانية . يخرج من هناك من أرض الشام . التي فتحها لهم سيد العالم . قوياً شديداً . ينادي في المعركة الحمراء . بصوت سمعه كل من في

اليرموك ، « يانصر الله اقترب ، الثبات الثبات ، يامعشر المسلمين » فثبتوا وجاءهم النصر وملكوا سورية من أقصاها إلى أقصاها ، فهي لهم ولأبنائهم إلى يوم القيامة ، ورأيت مئات من مثل هذه الصور ، فأحسست كأنما انتقلت إلى العهد الأول ، أشهد هبوط الوحي ، وأرى جلال النبوة ، وعزة الاسلام .

ونظرت ، فإذا أحد لا يزال بعيداً ، يعترض هذا الوادي ، الذي نسير فيه مشرقاً بهياً ، تومض عروقه المختلفة الألوان ، من الأخضر البهي ، إلى الأحمر المشرق ، إلى الأزرق اللامع ، فتمتزج هذه الألوان وتختلط ، فيكون لها في العين أبهى منظر ، وفي القلب أسمى شعور ، فازداد بي الشوق ، فأقبلت أحتث السائق وأستعجله ، أودّ لو تطوى له الأرض طياً ، أو يطير بنا إلى المدينة طيراناً ، فلا أرى السيارة تريم مكانها ، وأجد أحداً لا يزال بعيداً ، فأعود فأستحث السائق . . . ومالي لا أسرع إلى أحد وأحبه وقد قال رسول الله ﷺ ، « أحد جبل يحبنا ونحبه » ، ومالي لا أزداد شوقاً إلى المدينة ، وليس بيني وبينها إلا ربع ساعة ؟

وأعظم مايكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

* * *

ولما خرجنا من الوادي ، وانتهينا الى الفضاء الرحب رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين ، ورأينا سلعاً وهو جبل عال أسود ، يقوم حيال أحد فيحجب المدينة وراءه ، فلا يبدو منها الا جانب الحرة ، وطرف النخيل ، فذكرت قول محمد بن عبد الملك وقد ورد بغداد فحن الى المدينة :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بسِلْعٍ ولم تغلق عليَّ دروب
وهل أُحُدٌ بادٍ لنا وكأنه حصان أمام المقربات جنيب
يخب السراب الضحل بيني وبينه فيبدو لعيني تارة ويغيب
فإنّ شفائي نظرة إن نظرتها إلى أُحُدٍ والحرتان قريب
وإني لأرعى النجم حتى كأنني على كل نجم في السماء رقيب
وأشتاق للبرق اليمانيّ إن بدا وأزداد شوقاً أن تهب جنوب

* * *

وكان علينا أرطال من الغبار والأوساخ ، فاستحيينا من رسول الله ﷺ أن ندخل مدينته ونسلم عليه ، ونحن على مثل هذه الحال ، وكانت البساتين والحيطان قريبة منا ، فسرنا إليها نخبّ في الرمل ، فلما دنونا من أحدها سمعت غناء موقعاً على ناي ، كأشجى وأطرب ماسمعت من الغناء فتعجبت ، ثم ذكرت أن أهل المدينة مُذْ كانوا أطربَ الناس وأبصرهم بالغناء ، وهممت بالدخول ، ثم أحجمت وقلت ، لعل المغني امرأة ، فلقد كان الذي سمعت صوتاً طرياً رقيقاً لا يكون إلا لا مرأة أو غلام ، ثم حانت مني التفاتة ، من فرجة الباب ، فإذا المغني عبد أسود كالليل وإذا الذي حسبته نايأ ناعورة يديرها جمل ، لها مثل صوت النواعير في حماه ، لكنّ صوتها أرق وأحلى ، وإذا هذا السور الذي تلطمه الصحراء برمالها ، كما تضرب الأواذيّ صخرة الشاطئ قد عرّش على جانبه الآخر الياسمين ، وأزهر عليه الفل وظللته الأشجار ، وحنا عليه النخل ، ورأينا الماء يهبط على الساقية ، كأنه ذوب اللجين ، ثم يجري فيها طافياً عذباً متكسراً ، فجُنِنّا برؤية الماء الجاري ولم نكن قد رأيناه منذ عشرين يوماً إلا مرة واحدة في العلا ، واقتحمنا الباب ، وأقبلنا على الماء نغمس فيه أيدينا وأرجلنا ، ونضرب به وجوهنا ، ثم لا نشبع منه ، ولا ننصرف عنه ، حتى شممنا رائحة الحياة ، فاستلقينا على الأرض ، ننظر الى الصحراء الهائلة التي أفلتنا منها ، وضرب بيننا وبينها بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب .

* * *

اغتسلنا ولبسنا ثياباً بيضاً نظافاً ، وتطيبنا ، ثم ركبنا في السيارات الى المدينة ، فلم نقطع سلعاً ، حتى بدت لنا المدينة كصفحة الكف ، يحف بها النخيل ، وتكتنفها الحِرار ، وتقوم في وسطها القبة الخضراء التي يثوي تحتها جسد السيّد الحبيب محمد ﷺ ، وتكشفت لنا دُنيا كلها خير وحقيقة وجمال ، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال ، من هنا خرج الجند الثلثمائة الى بدر ، فدكوا صرح الاستبداد والجهالة ، ورفعوا منار الحرية والعلم ، أقاموه على جماجم الشهداء ، وسقوه هاتيك الدماء ، فأضاء نوره الجزيرة كلها ، ثم قطع الرمل ، فأضاء الشام والعراق ، ثم قطع البحر فأضاء الهند واسبانيا ، فاهتدى به الناس الى طريق الكمال الانساني .

وكنا قد بلغنا هذا المضيق الصخري ، بين هضبتي سلع ، فنظرت في خريطة للمدينة كانت معي ، وقلت للدليل ، أما هذا (ذباب) ، قال ، بلى والله فما يدريك أنت ؟ قلت ، أما هذا (مسجد الراية) ؟ قال ، بلى . قلت ، هذه هي ثنية الوداع ، وخفق قلبي خفقاناً شديداً ، وخالطني شعور بالهيبة من دخول المدينة ، والسلام على رسول الله ﷺ ، على ما في نفسي من الفرح والسرور ، وجعلت أتأمل المدينة ، وقد دنونا منها ، حتى لقد كدنا نصير بين بيوتها ، وأحدّق بالقبة وتحتها أفضل من مشى على الأرض ، وقد شخص بصري ، وكدت لا أرى ما كان حولي لفرط ما أحس من جيشان العواطف في نفسي ، حتى غامت المشاهد في عينيّ ، وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء ، وأحسست كأني قد خرجت من نفسي ، وانفصلت عن حاضري ، وذهبت أعيش في عالم طلق لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان ، فسمعت أصواتاً آتية من بعيد ، من بعيد ، وسمعتها تزداد وتقوى ، حتى تبينت فيها قرع الطبل ، ووعيت أصوات الولائد يضربن بالدفوف وينشدن ،

طلع البدر علينا ... من (ثنيات الوداع)
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

ورأيت المدينة قد سالت بأهلها ، فملأ الناس الحرّة ، وسدوا الطرق ، وغطى النساء الأسطحة ، ولم يبق في المدينة أحد إلا خرج لاستقبال المصطفى من ولد آدم ، وهو قادم ليس معه ﷺ إلا الصّديق الأعظم .

ثم سار وسارت وراءه هذه الجموع الى القرية التي لبثت قروناً ضائعة بين رمال الصحراء ، لا يدري بها التاريخ ، ولم تسمع بها القسطنطينية ، ولم تعلم بوجودها روما ، فجاء هذا الرجل ليهزها وينفخ فيها روح الحياة ، ويجعلها أم الدنيا وعاصمة الأرض ؛ الى المعشر اليمانين الذين جعلوا بأسهم بينهم ، فلم تمتد عيونهم الى أبعد من هذه الحرار ، ولم يطمعوا من المجد بأكثر من أن يسحق بعضهم بعضاً لينشئهم بالقرآن خلقاً آخر ، ويسلّمهم مفاتيح الأرض ، ويضع في أيديهم القلم الذي يكتبون به أعظم تاريخ للبطولة والعلم والعدالة ، فأطاعوا ولبّوا ، ثم مشوا الى القادسية واليرموك ، ثم أصبحوا سادة العالم ، ورأيت الأنصار يستبقون الى إنزاله ﷺ والتشرف به

ويصيحون به ، هلم يا رسول الله الى القوة والمنعة ، فيقول خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ويدعها تمشي وقد أرخى لها زمامها ، ما يحركها وهي لا تنظر يميناً ولا شمالاً حتى أتت دار بني مالك النجار فبركت عند باب المسجد ، ثم سارت وبركت في مبركها الأول فنزل عنها ﷺ وقال ، ها هنا المنزل إن شاء الله وكان المسجد مربداً لغلامين يتيمين في المدينة ، فاشتراه ﷺ وانطلق يحمل الأحجار بيده الكريمة ليضع أسس أكبر جامعة بثت الهدى في الأرض !

* * *

ونظرت فإذا السيارات أمام (باب السلام) ، فاشرأبت الأعناق ، وبرقت الأبصار ، ودمعت العيون ، وخفقت القلوب ، وتعالى الهتاف ، ونزلنا ندخل مسجد الرسول ﷺ وكانت حال لا سبيل إلى وصفها قط ... اللهم اجعل لنا الى تلك البقاع التي شرفتها بمحمد معاداً .

المدينة

منظر

لم تنشر ولم تذع

تشرفت بزيارة المدينة سنة ١٩٣٥ ورجعت إليها متشرفاً بزيارتها سنة ١٩٥٦ ، وقد رأى القارئ كيف قطعنا الصحراء إليها أول مرة وما صرمنا فيها من أيام ، وما حملنا فيها من شدائد ، وركبت إليها المرة الثانية طائرة حديثة قوية ، فقطعت بنا في ثلاث ساعات ، ما قطعناه أول مرة ، في نحو عشرين يوماً .

وكنت أنظر من شباك الطيارة ، الى الصحراء ، وهي تحتي أراها كأنها بساط متموج ، فأذكر كم لقينا فيها في رحلتنا الأولى ، وكم أحسسنا من اللذة والألم ، والخوف والاطمئنان ، وكم رأينا الموت يحيط بنا ، حتى اذا قلت ، قد أخذنا ، عاد فابتعد عنا .

لقد ربحنا الزمن ، ولكنا خسرنا العواطف والأفكار والتأملات ، وهل يحس راكب الطيارة بواحد من ألف مما أحسسنا ونحن نقتحم الصحراء ، نتسلق جبالها ونخوض رمالها ونشهد أصباحها وأماسيها وليلها ونهارها ؟

واستغرقت في أفكاري فما راعني إلا جبال المدينة قائمة أمامنا ، كالسد الهائل والطيارة مقبلة عليها كالبرق ، فأغمضت عيني وتصورت أني أحس رجة الاصطدام ، وإذا بها تنحرف عنه ، وتمرق بين الجبلين ، وتحط في بسيط من الأرض ، تطيف به الجبال من الجهات الأربع ، كأن الله قد أخلى هذه البقعة وحدها من الصخر ، ومهدها مستوية بين تلك الجبال ، ليكون منها في آخر الزمان مطار المدينة ، وكان هنالك عمارة جديدة فخمة لكنها لم تكن قد سكنت ، فكان موظفو المطار في ظلّة موقتة أقيمت إلى جنبها .

وسرنا الى المدينة تخترق بنا السيارات أودية شق فيها الطريق ، حتى خرجنا مرة ثانية الى الصحراء .

ولاحت لنا المدينة ، وبدت لنا القبة الخضراء فغلبتنا الأشواق وملكنا الحنين .

ولئن كان في الأرض بقعة يشعر فيها المرء أنه في الجنة حقاً فهي الحرم النبوي ، ولعلها معجزة دائمة للرسول . اذ خبّر أن ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة .

وإذا كان الناس يرحلون ليروا الأرض التي كانت عليها المعركة من المعارك ، أو الدار التي عاش فيها العظيم من العظماء فهاهنا كانت المعركة الخالدة بين الخير والشر ، وها هنا عاش أعظم عظيم ، وأفضل انسان ، من هنا انبثق معين الحضارة الذي استقى الغربيون يوماً من مائه ، من الأندلس حين كانوا يَردون تلاميذَ يأخذون من كتب ابن رشد وابن سينا ومن فلسطين حين جاؤونا يحملون الينا الموت والخراب فانصرفوا وهم يحملون من عندنا الحياة والعمران ، كما يحملون مرارة الهزيمة وألم الفشل .

ومن هنا كان لنا الهدى ، ومن هنا كان لنا المجد ، وكل خير نلقاه كان مصدره من هنا .

ولو كان محمد يريد الدنيا وبنى لها ، لكانت داره مثابة العصور وأهلها ، ولكنه كان يريد الآخرة ، فكانت داره غرفاً صغاراً من اللبن والطين ، وكذلك كان مسجده ما شاد ولا زخرف وإن كان كل مسجد في الأرض هو في حقيقته أثر من آثار محمد ، من الأموي ، وقبة الصخرة ، وجامع قرطبة ، والمسجد الجامع في دهلي الى الحرمين اللذين صارا الآن من تحف العمران . ومن آثاره النظامية والأزهر والقرويين في فاس ومدرسة ديوبند في الهند ، وهذه المكتبة الهائلة التي أبادت تسعة أعشارها نكبات العصور الخوالي ، وما وصل الينا لا تزال المطابع من مئة سنة تطبع منه وما طبعت مما بقي إلا الأقلّ .

بسيف محمد فتحنا ثلث المعمور من الأرض في أقل من ثلث قرن ، وبشرع محمد جعلناه مثابة العدل والهدى والخير .

* * *

لما زرنا المدينة أول مرة ، كانت مهملة مضاعة ، منقطعة عن الدنيا ، قد عطل الانكليز الخط الحديدي الذي كان لها كالشريان للانسان يحمل اليه الدم الذي تكون به الحياة ، وكالساقية للنبات تجيئها بالماء الذي يجيء بفقده الموت .

لقد ساء الانكليزَ أن يمتد ذلك الخط ، وأن يفتح للعرب الطريق الذي سلكوه أول مرة الى الشام فملكوها ، ثم أنشؤوا فيها دولة الاسلام ، فما وجدوا المجال لتعطيله حتى عطلوه ، وكان تعطيله وتخريبه بأيدينا نحن مع الأسف . لقد كان أعداؤنا (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ) فرحنا نخرب طرقنا بأيدينا وأيدي الانكليز (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) .

ولما زرناها سنة ١٩٥٦ وجدناها قد أخذت تتصل بالدنيا بهذا المطار الفخم الذي أنشئ فيها ، ووجدنا يد الرعاية والإصلاح قد مسّتها بعد أن كانت بعيدة عنها .

ووجدنا العمارات الجديدة قد بدت طلائعها فيها ومن ذلك (دار الضيافة) التي أنزلونا فيها ، فلقينا فيها من الإكرام والعناية ، ومن جودة الفرش وطيب الطعام ولطف المدير ما لا ننساه .

وكان من المصادفات أن وصلنا في رمضان ، فلما دنا المغرب وصفّت الأواني ووضعت الأطباق ، وتصاعدت رائحة الطعام الشهية ، لم يبق لنا صبر ، وجعلنا عيوننا في ساعاتنا ، نرى الثواني من بطئها كالساعات ، فما صدقنا ، لما سمعنا الأذان ، أن قد أذن حقيقة ، ومددنا أيدينا ، وإذا الطعام مملوء بالفلفل ، الذي يحرق الحلق ، ويطير العقل فذكرت أيامي في الهند وأندونيسيا ، وقلت ، ماهذا يا قوم ! ألحقنا طعام الهند الى الحجاز ؟

فضحكوا ، وبيّنوا ، وإذا هو سفير الباكستان ، قد نزل الدار ففلفلوا من أجله الطعام .

وإذا الهند قد لحقتنا حقا الى المدينة

* * *

وكان الحرم في سنة ١٩٣٥ كالأموي في دمشق ، محجوباً بالبيوت والدكاكين ، لا يبدو منه إلا أبوابه ، وكان الذي يخرج من باب السلام لا يصل الى باب المجيدية ، حتى يلفّ ويدور ، كمن يخرج من باب النوفرة في الأموي الى باب العمارة ، فوجدته سنة ١٩٥٦ ظاهر الجدران ، ، بارز الأركان ، بادي الجلال ، تطيف به من الجهات الأربع شوارع فسيحة ، ووجدته بعد التجديد والتوسيع آية في عظمة البناء .

ولكنك إذا ولجته لم تجد فيه (مع الأسف مرة ثانية) شيئاً مما كان ينبغي أن يكون فيه ، فلا مجالس علم ، ولا حلقات دروس ، ما فيه مدرس ، ولا تالٍ مجرّد يشرح ويفسر ، ووجدت السائلين يملؤون المسجد ، أما ما كان يصنع عند القبر ، فقد أبطل ، وتعوّد الناس الزيارة المشروعة . والقبر الشريف تحت أرض الحجرة ، لا يرى ، والصورة المتداولة التي يعلقها الناس في البيوت والحوانيت ليست صورة القبر[1] .

ومن مزايا المسجد النبوي ، أن فيه روائع الخط العربي ، و (الثلث) الذي رأيته فيه في أعلى الجدار القبلي ، لم أجد له في جودته نظيراً .

وقد آلمني أن البقيع قد صار (سنة ١٩٥٦) كأنه حقل محروث ، ترابه ناعم ، لم يبق فيه إلا قبور معدودة ظاهرة ، ولقد رأيت بقايا عظام الموتى على وجه الأرض لأنهم لا يبنون القبور بناء كما تبنى في الشام ، ولا ينتظرون الميت سنين كما ننتظر ، بل يحفرون أبداً[2] ويدفنون ، فتمتزج العظام ويكون هذا الذي رأينا ، وما ضاقت الأرض ، ولا منع في غيره الدفن .

وما عليهم لو تركوا البقيع ، وأظهروا قبور من دفن فيه ، ولقد دفن فيه أعلام الإسلام في الصدر الأول ، لا يجصصونها ولا يرفعون عليها القباب ولا يبنون عليها المساجد ، فذلك كله لا يجوز ، ولكن لا يحرثونه ، كلا ، لا إفراط ولا تفريط ، ولكن توسطاً واعتدالاً .

---

(١) لكنها صورة القبر القائم وراء الحجرة المنسوب للسيدة فاطمة .

(٢) أبداً هنا أي دائماً .

من المدينة إلى تبوك

من مذكرات الرحلة كتبت سنة ١٩٣٥ ولم تنشر

في هذه الصفحات وصف للطريق ، أرضه ومشاهده ، وما فيه من نبات وأشجار ، وتحديد المسافات بالأكيال (بكيلو متراج السيارة) . وربما مل منه القارئ الذي يبتغي التسلية ، أما من أراد الوقوف على طبيعة الصحراء وعوارضها وأسمائها بلغة أهلها اليوم ، فسيرى فيه وثيقة منقطعة النظير .

* * *

خرجنا من المدينة مع الغياب ، فوصلنا (بعد ستة أكيال) الى بئر عثمان وكانت آخر العمران ، فبتنا فيها وأصبحنا (يوم الأربعاء ١٥ مايس ١٩٣٥) فاستقبلنا الصحراء ، فسرنا بين جبال واطية لا يتجاوز عرضها مئة متر ، ثم اتسع الوادي ، وانكشفت البادية . وكان الوادي ممتلئاً بالحجارة التي وجدنا أكبر المشقة ، في إمرار السيارة عليها ، فلما خرجنا منه ، قلت الحجارة ، وسهل الطريق ، وما كان ثمة من طريق ، بل كنا نمشي في عرض البادية ، وبدت لنا أشجار السُمُر (واحدته سمرة ، وسمرة اسم) وهو شجر شوكي يشبه المشمش لولا أنه مسطح من أعلاه ، له منظر الشمسية . وأشجار الحرمل (واحدته حرملة) وهو مستدير طويل الورق ، علوه نحو نصف ذراع ، والبدو يدخنون به من يصاب بالجدري يداوونه به ، وأشجار السلم ، وهو شجر شوكي كبير .

وكنا نمشي الى جنب سكة الحديد . فلما قطعنا خمسة وعشرين كيلا ، وصلنا الى (وادي الجفرة) ، وفيه أشجار كثيرة من الرمث والطرفة . وسرنا بعده في بحصة ناعمة ، سهلة كأنها طريق بيروت ، وكانت الأرض على مدى البصر مغطاة بشوك صغير اسمه العراد ، علوه نحو نصف ذراع ، وهو يخضر في الربيع وييبس في الصيف والرمث على الضد منه ، وهم يجنبون الابل الدنو منه ، لأنها إن أكلته أسهلها ومشى بطنها .

واستمر هذا المشهد الى وادي بواط (وهو يبعد عن المدينة ٣٩ ك) وهو مسيل وعر ، تعطلت فيه احدى سياراتنا فوقفنا ساعة ننتظرها فأحسسنا كأن السيارة تلتهب من الحرارة التهاباً ، وليس في الصحراء الا الشمس المحرقة فتصدعت منا الرؤوس ومالت ، وكنا ننام في أماكننا ، فلا نكاد نغفو حتى يوقظنا الصداع ، فنجلس فيلقينا الحر ، ثم وجدنا بعد اللتيا والتي جسراً تمر عليه السكة قد جاز فيه السيل منذ ليال فجمع الى الظل رطوبة الرمل ، فأحسسنا أن قد وجدنا فيه جنة من جنان الأرض ، واستلقينا فيه على الأرض ندنو بآنافنا من الرمال ، كما تفعل الإبل ... حتى استروحنا .

وعدنا نسير ، تعترضنا شعاب قليلة ، ثم تعود الأرض سهلة ، ورأينا نبت المرخ ، وورقه يشبه ورق القمح ، وهو بعلو قامة الانسان ، تصنع منه الحبال المتينة ، وأليافه أقوى من ألياف القنب ، وكان العرب يتخذونه قديماً زناداً يقدحون به النار ، والعرعر وهو شجر يشبه المشمش شديد الاخضرار .

وأمسى علينا المساء في محطة البوير فبتنا فيها (وهي على بعد ٩٥ ك من المدينة) .

والمحطة ست عمارات كبيرة من الحجر الأسود ، مبنية سنة ١٣٢٦هـ وهي خالية خاوية ، وأمامها الخط صدئاً موحشاً ، والحافلات محطمة مكسورة ، يبكي قلب من يراها مرتين ، مرة لما آل اليه أمر هذا الخط الذي بني بأموال المسلمين ، وبأيديهم ، ومرة لأنه هدم بأيدي المسلمين . وجعلت أتذكر هذه العمارات ، لما كانت فيها الحياة ، وكان يزدحم عليها الحجاج ذاهبين وآيبين ، والبدو من حولها بائعين

ومرتزقين ، والدنيا قد زحفت اليها ، فآضت الآن في سكون القفر ، ووحشة المقبرة ، ما فيها ديار ، ولا نافخ نار .

وكانت ليلة قمراء ، وكانت نسائم الليل رخيّة منعشة ولا يعدل نهار الصحراء في شدته ، إلا ليلها في لينه ، فاستلقيت بعد هذا التعب ، أنعم بالراحة بعد الجهد ، والنسيم العليل بعد الشمس المحرقة ، ولكن النعمة لم تتم ، فلقد رأيت ما جعلني أثب وثباً ، وأقفز مبتعداً ، رأيت عقرباً ، وقتلتها ، فما مرت لحظة حتى رأيت أخرى ، وثالثة ورابعة ، وتاسعة وعاشرة ، وإذا الأرض كلها عقارب ، فطار نومي ، وطويت بساطي وعباءتي فحملتها فدخلت المحطة وصعدت الى سطحها ، أبتعد عن العقارب ، فاذا المحطة ممتلئة بالعقارب ، واذا هي تخرج منها ، فبقيت حائراً لا أدري ماذا أصنع ، ورأيت القوم كلهم ناموا ، وأنا باق وحدي فهدني التعب ، فاضطجعت وأحسست بشيء يمسّ رجلي فأشعلت عود كبريت ، ولم يكن معنا مصباح كهربائي فلم أجد شيئاً ، وأخذني النوم فما شعرت إلا والدليل يوقظني لصلاة الصبح .

الخميس ١٦ مايس ١٩٢٥

ولما أضاء النهار ، نظرت فاذا نحن في أرض مستوية ، أرضها (بحصة) سوداء ، يحيط بها نبت من نبات الصحراء اسمه (الرمث) تحف بها جبال لها ذرى حادة كثيرة ، وفي أعلاها صخرة تشبه البناء يسمونها (اصطبل عنتر) ، ويزعمون أن عنتر القصة كان يربط فرسه بها !

كأنه لا يليق بمقام عنتر أن يتخذ مربطاً لفرسه الا هذه الصخرة المعلقة بين السماء والأرض .

ومشينا مع طلوع الشمس ، نغنم برد الصباح لنقطع فيه مالا نستطيع قطعه في التهاب الظهيرة ، ومررنا بشعاب كثيرة ولكنها سهلة ، كانت السيارة تجتازها من غير أن ننزل فنجرّها .

ووصلنا الى محطة (أبو النَّعَم) بعد مسيرة خمسة وعشرين كيلاً ، فوجدنا فيها بئراً عميقة حفرت لما بنيت المحطة ، ولم نجد حبلاً ولا مضخة ، فحرنا كيف نصل

اليها . وكان معنا دليل بدوي شيطان من شياطين البادية . فلما رأى حيرتنا ضحك منا . ونزع خفّه وعباءته . وعلّق القرب بعنقه وهبط اليها . ولم يرض الخبيث أن يملأ قربنا حتى اغتسل ... في ماء البئر . وخبط الماء بعكره . وقد وجدنا الماء الذي أخرجه (مع ذلك كله) كأنه ماء الفيجة .

وسرنا (بعد نصف كيل) في رملة سوداء عجيبة . ولكن الأرض كانت حزماً . والحزم بعرف البدو الأرض اليابسة التي لا تغوص فيها الرجل .

أردنا بالتبكير السرعة . ولكن الله أراد لنا البطء . فتعطلت سيارة ولبثنا في اصلاحها ست ساعات وكانت الشمس في كبد السماء . وكنا نتمنى أن نجد ظلا ولو بقدر ذراع فلا نجد . وان دخلنا السيارة دخلنا فُرناً حامياً لا يمكن البقاء فيه دقيقة . وكان الهواء يهب سخناً كأنه خارج من تنور . ولم أجد والله وسيلة أستطيع فيها أن أتنفس هواء بارداً إلا بأن حفرت في الرمل نحو نصف متر . وأدنيت أنفي من الأرض لأجد برودتها فلا تلبث هذه البرودة حتى تجعلها الشمس جمرة تتلظى . وغسلنا العرق . ولم نعد نجد القدرة على الوقوف فضلاً عن الحركة .

ثم يسر الله فمشت السيارات . ومررنا على حرّة تسمى حرة المقرح (على بعد ١٧٦ ك من المدينة) وأرضها ذات حجارة سوداء كبيرة . كالتي نستعملها في دمشق لتنظيف الأرجل في الحمامات مشينا فيها ثلاثة أكيال .

وكان الدليل صموتاً قليل الكلام . فوجدناه قد انطلق فجأة صائحاً مستبشراً . يشير بأصبعه الى الأمام . فأبصرنا فلم نر شيئاً . فسألناه . ماله ؟
ـ قال : الوادي .

فما مشينا كيلًا واحداً . حتى رأينا مشهداً استخفنا نحن أيضاً كما استخف الدليل . وحسبنا أنفسنا لما رأيناه في حلم .

وجدنا وادي هدية سائلاً . وهو واد كبير عليه أشجار الدوم (وهو نخل لا يثمر له جذوع متعددة جميل المنظر) . فكان لمرأى هذا الماء الغزير الذي يسيل كنهر قوي عرضه أكثر من عشرين ذراعاً . بعد ظهيرة الصحراء المحرقة . أثر في نفوسنا لا يكاد

يوصف . وتركنا السيارات لا نفكر في إجازتها السيل . وأقبلنا على الماء نشرب منه . ونغمس فيه أيدينا . ونضرب به وجوهنا كمن لم ير في حياته ماء . لقد جننا برؤية الماء . وما ظنك بمن يتمنى كأسا من الماء فيلقى نهراً ...

وشعب هدية فسحة رملية متسعة . حولها جبال صخرية سوداء أهرامية الشكل . وأرض الحجاز فيها غرائب الجبال وعجائبها . وقلّ أن ترى فيها جبالاً تشبه أخرى . بل كلما سرت بدت لك أشكال جديدة من الجبال . فقد رأينا قبل هدية جبلاً عالياً . ماهو الا كومة أحجار بركانية سوداء كالتي يستعملونها لرصف الطرق ملصق بعضها ببعض . وكنا قد لقينا الألاقي من هذا الشعب لما جزناه في قدومنا الى المدينة . وشعب هدية مشهور يعرفه كل من أدرك الحج البري . عرضه ثلاثة أكيال ونصف . كلها رملة واحدة ناعمة ملساء . منها نحو كيل لا تثبت فيه قدم انسان ولا جمل . فما بال دولاب السيارة بثقلها ؟

وخضناه هذه المرة بالسيارات . والماء يتطاير رشاشه على وجوهنا . ويدخل من نوافذ السيارة فيبل ثيابنا ونحن من فرحتنا بالماء . لا نبالي ما ابتل منا .

وأمسى علينا المساء وكنا في وادي الحمض . وهو واد طويل جداً يمتد من جبال الطائف إلى خيبر . وينتهي الى البحر فبتنا فيه (على بعد ٢٠١ ك من المدينة) .

وقد قطعنا في هذا اليوم مئة وسبعة أكيال .

الجمعة ١٧ مايس ١٩٣٥

سرنا من الغداة في أرض رخوة بين أشجار السلم وهو من أكبر أشجار البادية . والسرح وهو أكبر منه ومنه ما هو بمقدار الجوزة الكبيرة في الغوطة . ورأينا على الطريق (في موضع يقال له براقة على ٢٠٥ ك من المدينة) قطاراً مقلوباً قد غطته الرمال . يظهر أن لورنس الانكليزي هو الذي نسفه بمن كان فيه من الجنود المسلمين !

وكنا نسير بين جبال مسننة الذرى . جميلة المنظر . تبدو كأنها الأبراج الصغيرة . أو التماثيل . تقوم صفاً وراء صف . مختلفة الألوان والأشكال . الجبل

الواحد ، عشرة ألوان أحمر وأصفر وأسود ، وألوان لا أعرف لها اسما ، ولا أملك لها وصفاً .

ومررنا بالغضى وهو يملأ البادية ، وكانت تعترضنا سدود من الصخر ، فكنا نجد ممرات للسيارات فيما بينها ، ضيقة كأنها الأزقة تمر وسط البيوت المتقاربة ، في البلد القديم .

ورأينا جملاً ميتاً وعليه النسور والعقبان ، فلما اقتربت السيارة طارت ، ناشرة أجنحتها الواسعة ، كأنها وهي فوقنا سرب من الطيارات النفاثة ..

الصـــورة

وبلغنا الصورة ، (على بعد ٢٣٧ من المدينة) وليست محطة من محطات القطار ، ولكنها احدى محطات طريق الحج القديم ، التي كانت تتسلسل على طول الطريق في كل واحدة منها قلعة وبئر وبركة واسعة ، تملأ قبل وصول الحجاج . وكانت حماية كل قلعة منها لأسرة من أسر الشام المشهورة ، يقيم واحد منها في القلعة طول السنة يحميها من عدوان البدو .

ووجدنا البئر سليمة نظيفة وأمامها بركة مهدمة ، فأنزلنا الدليل ليملأ القرب ، ووصيناه ألا يغتسل إلا بعد أن يملأها ، لأنا لا نحب أن نشرب غسالة جسده الجميل .

الضـــب :

وسرنا ، فوجدنا ضباً بطول شبرين ، فسألت الدليل عنه ، لأني لم أعرف ما هو ، وإن كنت أحفظ اسمه وأعرف أنهم يقولون (أعقد من ذنب الضب) .

وأشرت اليه ، فلما رآه الدليل قفز من السيارة ، كمثل قفزة القط رأى فأراً ، فاحتوشه وجاء به في يده ، فأوقد ناراً وذبحه وشواه وجعل يأكله ، فأغمضنا عيوننا من بشاعة المنظر .

ودخلنا في واد ضيق صعب ، فيه شعاب وحجارة ، ثم اتسع من حولنا ، ثم صرنا في فلاة واسعة .

ووصلنا محطة المشهد (على بعد ٢٧٩ ك عن المدينة) فلم نقف عليها ، وجزنا بعدها بواد كله غضى ، وهو يسمونه (وادي الغضى) ، رأيت فيه غضاة كالشجرة ، مستديرة كأنها من أشجار الآس ، ولها مثل خضرتها وجمالها ومررنا بمحطة (البدائع) ، وهي محطة كبيرة (على بعد ٣٠٤ ك من المدينة) .

النمــر :

وكنا قد بتنا فيها في القدوم ، وكان معنا الدليل محمد الأعرج ، فرأيته قد أخذ بندقيته وابتعد عن القوم فقلت ، ما هذا !

فلم يرد ، وكان كأكثر الأعراب ، قليل الكلام ، فأعدت السؤال ، فقال ، نمر !

يقول (نمر) كما يقول أحدنا (قط) ، لا يكترث ولا يبالي .

قلت ، أين هو ؟

فأشار بيده فرأيت في الظلام عينين متقدتين كما تتقد عيون القطط ، فرماه برصاصة فاختفت العينان .

ـ قلت ، أصبته ؟

ـ قال ، لا بالله

ـ قلت ، فماذا نصنع

فنظر الي ولم يجب وتمدد فنام

وكنا ننام متفرقين ، بلا خيمة ولا حرس يفرش كلٌ بساطه تحته ويلقي عليه عباءته وينام ، فجئت لانام فلم أستطع ، وكيف أنام والنمر يجول من حولي ولو كان كلباً أو ثعلباً ، لما باليت به ، ولكنه النمر ؟

إنه لو جرني وأنا نائم لما استطعت معه شيئاً فطار نومي وبقيت ساهراً أنظر حولي الى الصباح .

جبال عجيبة

كان هذا في القدوم ، ولقد مررنا بها الآن فلم نقف عليها ، وكنا نمشي الى جنب سكة الحديد ، والجبال عن أيماننا وشمائلنا بأشكالها العجيبة ، كأن ذراها القباب والمآذن والتماثيل ، من مكعب ومستطيل وهرمي ، وذرى على هيئة الحيوانات ، لها ألوان عجيبة لا توصف من تعددها وتموجها .

وهذا هو وادي القرى ، الذي ملأ ذكره الأخبار ، وسارت به الأشعار .

وبلغنا (العلا) بعد العصر .

في العلا

والعلا قرية صغيرة جميلة ، تقوم في واد ضيق ، تحف به هذه الجبال الجميلة الممتعة ذات الأشكال الغريبة ، ولون أكثرها أحمر مخضر جميل ، والوادي كوادي العين الخضراء فيه العيون والسواقي والأشجار ، وأمتع ما فيه هذه النواعير (السواني) ذات الصوت الموسيقي الفاتن ، ولقد حسبتها في سكون الليل ناياً أو آلة موسيقية ، فسألت عنها فأخبروني أنها النواعير ، وأن العوام من الوهابيين أرادوا منعها عند فتح الحجاز بحجة أنها من الطرب الممنوع ...

وكنت أمشي في طريق البلد ، وبين البلد والمحطة نحو من ساعة على الأقدام ، وفي المحطة قصر الأمير ودوائر الحكومة ، فسمعت صوتاً غريباً حلواً آلفه ، ثم ذكرت أنه كصوت نواعير حماه فدخلت وإذا هي حديقة من أجمل الحدائق فيها سانية (والسانية بئر أمامها وهدة مستطيلة يروح فيها الجمل ويغدو وعلى البئر قربتان صاعدة ونازلة) ووجدت في الحديقة عريشة رطبة ، حولها النخل والرمان والعنب والورد والنعنع فأمضينا فيها أمسية لا تنسى .

١٣ كأسا من الشاي :

وكنا قد أمضينا هذه الأيام الثلاثة لم ننم فيها أكثر من ساعات معدودات وكنا نمضي ليلتنا مع الوحوش والعقارب ، ونهارنا في الشمس المحرقة والرمل المستعر ، وكان الصداع قد مزّق أصداغي ، فكنت لا أتمنى في الدنيا شيئاً إلا أن أجد مكاناً هادئاً ، وفراشاً طرياً ، فأنام عشر ساعات ، وسألت عن موضع المنام ، فقالوا : هيهات إن الامير يدعوكم الى العشاء .

وكنت أعرف ما هذا العشاء ، إنه ليلة بيضاء لا نوم فيها ، لأن الإكرام عندهم أن يذبحوا لك الخروف ، وأن تنتظر حتى يسلخوه ويصلحوه ويطبخوه ويقدموه ، فتذهب في ذلك ست ساعات .

ودخل العبد بالشاي ، ومن عادتهم فيه أن يصفّوا الكؤوس في الصينية ، شاياً أحمر وأخضر ، يأخذ الضيف من أيهما شاء ، ثم يقف العبد بالاباريق ، فمن شاء ثنى أو ثلّث ، وكنت من الحاجة للشاي بعد هذا التعب ، وهذا النعاس ، كالأرض العطشى في حاجتها الى المطر ، فشربت كأساً ، وثنيت وثلثت ، وما زلت أستوقفه وهو يصب لي ، حتى شربت ثلاث عشرة من هذه (الكاسات) الصغار جداً ، فما كان من العبد إلا أن بربر وقال مالم أفهم ، وتركني وولى وما نمنا تلك الليلة حتى صلينا الفجر .

السبت ١٨ مايس ١٩٣٥

أمضينا النهار نياماً ، فلما صلينا العصر دعانا الأمير الى الشاي في حديقته ، فركبنا عربة صغيرة على السكة (طرزينة) من المحطة حيث يقيم الأمير الى البلد ، ندفعها بأيدينا حتى اذا درجت وثبنا اليها ، نتعب بها أكثر مما تريحنا ، كأنما نحن نحملها لا هي التي تحملنا ، حتى اذا وصلنا الحديقة ، مسحت عيني أحسب نفسي في منام ، ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وماء جار ، ونخل ورمان ، وعنب وتين ، ومشمش وتفاح ، وورد وفل ، فشربنا الشاي الأخضر بالنعنع ، والمرطبات بالليمون الغض ورجعنا ومع كل منا صرة من الثمار ، وطاقة من الورد والفل .

الأحد ١٩ مايس ١٩٣٥

أمضينا صباح هذا اليوم ، نرى البلدة وهي صغيرة وفيها حيان ، الحي الأعلى ويسمونه (الشقيق) وهو من جهة الشام ، والحي الأسفل ويسمونه (الحلف) وهو من ناحية المدينة ، الحي الأول قديم والثاني جديد ، وفيها خمسة مساجد ، ومساجدها كما رأينا من المساجد في تبوك والقريات ، غرف سقوفها من سعف النخل عليه الطين ، وأرضها من الرمل الناعم ، وهم يرون أن هذه هي السنة لا يجوز فيها غيرها .

وفيها مدرسة ، ذات ثلاثة فصول[1] ، فيها ثلاثة معلمين ومئة وخمسون تلميذاً .

وفي العلا من العيون والسواقي والحدائق والزروع ما يذكر المرء بالغوطة ووادي بردى .

وفي جبالها (من جهة الشام) كتابات لم أستطع أن أقترب منها فأتبينها .

وودعنا الأمير ومشينا ، فلما جاوزنا الوادي عادت الصحراء واختفت تلك الجنان والحدائق ، فذكرت قصة (المدينة المفقودة) ، وحسبت أني كنت في حلم وصحوت منه .

بطيخ !

وتصايح أصحابنا : البطيخ ، البطيخ .

فنظرت فاذا البطيخ تمتد عروقه على الأرض ، ويبدو ولكنه دون بطيخنا في الحجم ، وهموا بأن يقطفوا من ثمره فضحك الدليل ، وقال لهم :

ـ هذا الحنظل !

ومررنا بشجر (الأثل) وهو شجر عالٍ له ورق دقيق أخضر يشبه النبات الذي يسمى في الشام (ورق الهواء) .

---

(١) هذا الوصف كله سنة ١٩٣٥ .

وساخة البدو

وكان الذي نغص علينا مقامنا في العلا ، بل الذي كان يؤذيناحيثما قابلنا ، هو مواكلة هؤلاء البدو ، الذين ما تعلموا قط أن النظافة من الايمان ، وما رأينا واحداً منهم يغسل يده بالصابون ، ولو رأى الصابون أمامه والماء جارياً بين يديه ، بل يأكلون بالخمس والكف ، ثم يمسحون بثيابهم التي يلبسونها وهي بيضاء ، فلا ينزعونها حتى لا يعرف لها لون ، أو يمسحون بشعورهم المسبلة ، لقد كان القعود معهم على الطعام لوناً من ألوان الانتحار البطيء .

* * *

ووقفنا ساعة الأصيل في واد جميل ، كأنه امتداد لوادي العلا ، في جوانبه كلها هذا الأثل ، تتحرك أوراقه الناعمة ، فتبعث بالنسيم الرّخي ، كأنما هي مروحة في يد حبيب .

وكان الليل قد أظلم فبتنا في هذا الوادي .

الاثنين : ٢٠ مايس ١٩٣٥

أصبحنا ، فسرنا قليلا فوصلنا مدائن صالح ، (وكنا قد ابتعدنا عن المدينة ٣٦٧ ك بالسيارة) .

مدائن صالح

كنت مرة مع جماعة من الاخوان ، أكثرهم من الشيوخ المسنين ، فذكروا مدائن صالح ، فرووا ما يقول القصاص فيها من أنها مقلوبة قلباً ، حتى أن أرض الدور فوق ، وسقفها تحت ، محتجين بقوله تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) .

فقلت لهم ، إن الله قال (فجعلنا عَالِيَها سَافِلَهَا) أي هدمناها وسويناها بالأرض ، ولم يقل فجعلناها سافلها عالياً ، وأنا قد زرتها فما رأيت فيها شيئاً مما تقولون .

قالوا : أنت وهابي لا تصدق .

فضحكت من جهلهم .

والذي رأيناه في مدائن صالح ، صخور منفردة كبيرة قد نقر فيها مثل الغرف ، وقد زينت (واجهتها) وجعل للباب إطار مزين بنقوش أكثرها على صورة درج ، وفوق الباب صورة نسر حوله كتابات لم نستطع تبينها لأننا لم نقف عليها إلا قليلاً لنهي الرسول ﷺ عن طول الوقوف بها . ومن هذه الأبواب ما هو عظيم يزيد ارتفاعه على خمسة عشر متراً ، وفيه نقش دقيق ، ومنه ما هو صغير سيء النقش .

والمحطة قريبة منها ، وهي أكبر محطة على طريق السكة الحديدية ، فيها كثير من الحافلات ، وفيها ماء عذب وحولها بساتين تزرع فيها (الخضراوات) وينزل بالقرب منها الأعراب ، ولما وصلنا اليها كنا قد مشينا منذ فارقنا المدينة ثلاثمائة وسبعة وستين كيلاً .

وبعد المدائن بخمسة وعشرين كيلاً ، دخلنا في جبال الخور الصخرية الهائلة التي تقدم وصفها ، وهي شق في سلسلة الجبال التي تعترض الطريق بصخورها ، ندخل فيه ، فلا يلبث أن يستدير ويمر وسط الجبل كأنه نفق ، حتى ينفذ من الجهة الأخرى وله فروع ثلاثة ، أولها اسمه (مبر ك الناقة) وكان طريق الحج البري القديم عليه ، ومنه يمرّ القطار ، والثاني (خور حمار) وهو طريق السيارات ، وهو أشدها وأصعبها ، (وكلمة الخور فصيحة) والثالث هو (خور نعجة) ، وكلها مملوء بالرمل الناعم الدقيق ، فلو حفرت فيه عشرين متراً لما وصلت الى الأرض ، ولو أنعمت النظر فيه لوجدته في حركة دائمة . ينتقل من مكان الى مكان بأيسر نسمة وأخفها ، لذلك كان في مبرك الناقة عمال يزيحون الرمل عن الخط دائماً ، فإن تركوه يومين غطّاه الرمل ، وطول الخور أحد عشر كيلاً ، ولكنا ما قطعناه حتى قطعنا فيه يوماً كاملاً (ويبعد أوله عن المدائن ٢٣ ك) .

وقد بتنا في أوله نشتغل في اعداد السيارات لاجتيازه نجمع لها الحشائش فنضعها تحتها ، ونمد تحت الحشائش الشريط والأخشاب ثم لا نستطيع أن نجوز بها لأن

الخشب يغوص في الرمل والشريط يلتف على الدولاب ، وما استرحنا حتى انتصف الليل وسقطنا من الاعياء .

الثلاثاء ٢١ مايس ١٩٢٥

لما أصبحنا نظرنا فاذا المشهد الذي نراه يستحق أن تشد اليه الرحال من آخر الأرض ، أمامنا مدخل الخور وعلى جانبيه صخرتان قائمتان كناطحتي سحاب ، يزيد علوهما عن مئة متر ، يبدو من خلالهما هذا الزقاق الضيق ، ومن فرج الصخر من ورائنا يلوح السهل الذي خلفناه ، تحف به هذه الذرى العجيبة الماثلة كالتماثيل والبروج ، ومن تحتنا رمل أبيض ناعم متموج ، قد رسم النسيم على وجهه ، مثل موجات الماء على وجه البحيرة الساكنة ، ومن حولنا من نبات الصحراء كل يانع مخضر .

فمن ذلك (الطرف) وله زهر أبيض كالقطن ، وهم يتخذونه حشواً للوسائد ، الى (الجثجاث) وهو كالأقحوان له زهر أصفر ، ولكن أغصانه أطول ، وزهره أكبر ، وهو يعلو عن الأرض قريباً من ذراع ، الى (الخروع) وورقه أخضر مستطيل ، تقوم خلال ذلك أشجار (الطلح) وهي أشجار كبيرة لها ورق دقيق جداً ، وشوك كثير .

ولولا أنه كان علينا العمل لإمرار السيارات ، ولا تمرّ إلا بشق الأنفس لكان يومنا متعة وأنساً ونزهة ليس لها نظير .

ورحنا نعمل ، يشتغل فريق منا حتى يسيل منهم العرق ، ويبلغ منهم التعب ، ثم يقعدون ويقوم آخرون .

وليمة بدوية

وكان هؤلاء الأدلاء من البدو كلما أكلوا من طعامنا قالوا ، أين هذا من (الحنينة) ، لا شيء أطيب ولا أمرأ من الحنينة !

فكنا أبداً نشتهي هذه (الحنينة) ، وننتظر أن نذوقها ، وهم يعدوننا ويمنوننا ،

فلما لبثنا هذا اليوم في الخور، أرادوا أن يكرمونا، وينسونا ألم التعب بلذة الأكل، فأعدوا لنا (الحنينة) .

جاؤوا بالدقيق فعجنوه بهذه الأيدي القذرة، ذات الأظافر السود، وصبوا عليه السمن النيء ومزجوه به، ثم جاؤوا بالعجوة فعجنوها معه، فكانت الأكلة من ثلاثة أجزاء متساوية، جزء من الدقيق، وجزء من السمن، وجزء من العجوة، وانضم اليها جزء مثل ذلك من الرمل الذي طار اليها، وجزء من الشعر الذي نزل من رؤوسهم ومن لحاهم فيها .

وكنا نريد أن نفطر الصبح، فقالوا، لا، بل تصبرون حتى تأكلوا الحنينة على الريق .

فصبرنا وصبرنا حتى اقترب الظهر ولم تنته الحنينة .

ثم جاءت، فأقبلوا عليها بأيديهم يكبكبون ويرمون في حلوقهم، وجئت لآكل فلم أستطع، فجاؤوني بملعقة لم تغسل من خمسة أشهر ويومين، عليها أربعة وثلاثون غراماً من الأوساخ، فحاولت أن آكل بها فلم أقدر، فأخذت بين إصبعي شيئاً من هذه (الآفة) التي اسمها الحنينة، وأغمضت عيني ووضعتها في فمي، فغثت نفسي فقمت فلفظتها بعيداً .

وذهبت أفتش فوجدت بعد التعب كسرة يابسة من الخبز وشيئاً من التمر، فأكلته وحمدت الله عليه، وعلى النجاة من هذه الحنينة !

ولما خلصنا من الخور، كان أكثر النهار قد ولى، فسرنا نستقبل الشام، وقد خلفنا بوادي الحجاز وراء الخور وكان حولنا بيداء واسعة، فيها رملات معدودة، ما كنا نلقى في قطعها كبير عناء، وهضاب متفرقة، ومررنا بجبل عال في أعلاه صخرة مخروقة من فعل الرياح يسمونه (أبو طاقية) .

ووصلنا الى جبل الأقرع، الذي لقينا من شدائده في القدوم ما علم القارئ بعضاً منه، فلم نقترب منه، بل درنا حوله، حتى اذا ابتعدنا عنه ونجونا منه نزلنا

للمبيت . في أرض مستوية مرصوفة بحصى دقيق . (وكنا قد ابتعدنا عن المدينة ٤٣٥ ك) وكان جبل المطلع أمامنا .

الأربعاء ٢٢ مايس ١٩٣٥

فررنا من (المطلع) مثلما فررنا من (الأقرع) ، لأننا لم ننس ما جرّعنا هو وأخوه في القدوم . ومشينا (عشرين كيلاً) فوصلنا الى (البريكة) وهي احدى محطات الحج البري القديم . وكانت قلعتها مهدمة ، وبركتها مخربة ، وبئرها جافة ، فلم نقف عليها . ومررنا بخشم صنعاء (والخشم في عرف أهل البادية جبل له صخرة بارزة ، أو شعبة معترضة) وكنا نمشي بجنب السكة ، وكانت من حولنا أشجار الطلح ثم صار مسيرنا في شبه واد بين جبلين . ذكرنا به وادي بردى بعد التكية ، ووقفنا قليلاً في محطة صنعا ، وهي من محطات السكة ، وأخذنا نهبط بعدها حتى انتهينا الى فلاة فسيحة ، ثم دخلنا بين جبال هرمة ، أحجارها رخوة ، ألواح رقيقة تتفتت من وطء السيارة ، ثم توعر الطريق ، وكثرت الحجارة .

ولما ابتعدنا عن الخور مئة وأربعة وأربعين كيلاً ، صرنا في سهل مثل الكف ، وأرض مستوية ، وقد هطلت الأمطار ، وامتلأت الأرض بالبرك ، وعطر الجوّ برائحة التراب المبتل ، فانتعشت النفوس ، وطاب اليوم ، وامتلأت قلوبنا نشوة .

سرنا في هذه الأرض المستوية أربعة عشر كيلاً ، ثم صار مشينا بين هضاب وقور[1] كأنها الأهرامات ، وعادت الأرض مستوية .

وما زالت الصحراء تتلون من حولنا ، تشتد وتلين ، تتبدل مشاهدها ، وتتغير طبيعتها ، حتى بلغنا تبوك في المساء وكنا قد قطعنا في هذا اليوم وحده ٢٨٣ كيلاً .

وكان مجموع ما قطعناه من المدينة الى تبوك ٧١٨ ك .

---

(١) جمع قارة .

الفهرس

* * *



